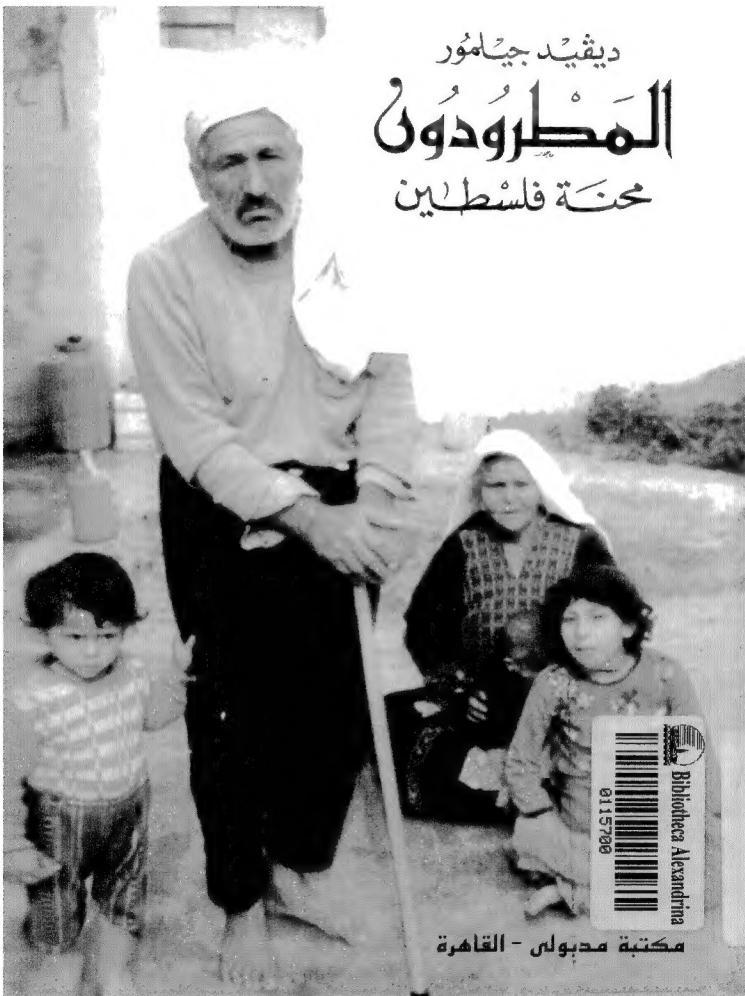
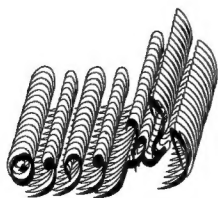


ديقيّد جيّامور  
المَطْرُودُون  
محنة فلسطين

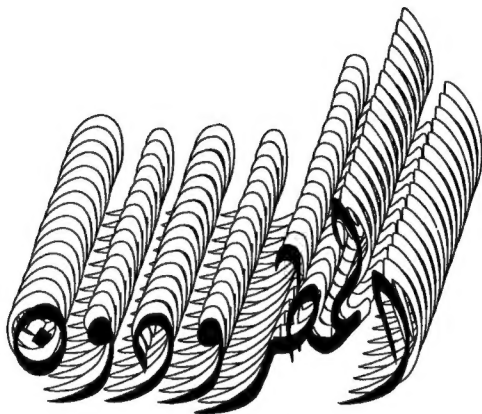


مكتبة مدبولس - القاهرة









## محنة فلسطين

١٩٨٠-١٩١٧

تأليف : ديفيد جيلامور

ترجمة : شاكر إبراهيم

الناشر : مكتبة مطبوعات - القاهرة

جميع الحقوق محفوظة

١٤١٤هـ - ١٩٩٣م

**MADBOULI BOOKSHOP** مكتبة مدبولي

6 Talat Harb SQ. Tel: 756421

٦ ميدان طلعت حرب - القاهرة - ت: ٧٥٦٤٢١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



## المطردون

محنة الفلسطينيين ١٩١٧-١٩٨٠

ديفيد چيلمور

يصف هذا الكتاب التجربة التي عاشها الفلسطينيون فى القرن التاسع عشر... أى قبل استيلاء الحركة الصهيونية على فلسطين وما أعقب ذلك من طرد لسكانها العرب وسنى البؤس التى أمضاها الفلسطينيون فى بلاد أخرى أو تحت الحكم العسكرى الاسرائيلى، كما يصف ما بذلوه من محاولات فى سبيل استرداد وطنهم .

زار المؤلف الدول التى يعيش فيها الفلسطينيون وتحدث معهم حول ذكرياتهم عن فلسطين وعن حياتهم فى المنفى وآمالهم فى المستقبل... تحدث إلى أطفال مخيمات اللاجئين وإلى أعيان القدس الطاعنين فى السن وإلى رجال الأعمال من الفلسطينيين فى الخليج وإلى قادة الفدائيين فى بيروت.... ومن رواياتهم استطاع الكاتب أن يرسم صورة لأمة تعيش فى المنفى ... صورة شعب يدرك أنه لا ينتمى لغير البلد الذى أغلقت حدوده فى وجهه .

والفلسطينيون مشتتون فى جميع أنحاء العالم العربى حيث يحيون أساليب حياة متنوعة فى ظل ظروف متباينة، ومع ذلك فإن حياتهم فى المنفى هى العامل المشترك بينهم، ومن ثم فإن الأحساس بالاعتراب والحنين للعودة إلى الوطن جعلوا القومية الفلسطينية من أقوى القوى السياسية فى العالم العربى... ولا مناص، كما يرى المؤلف فى الفصل الختامى من هذا الكتاب، من اشباع هذا الحنين إذا ما أريد حل المسألة الفلسطينية وتحقيق العدالة لهذا الشعب .

## كلمة شكر

لولا تعاون المثات من الفلسطينيين ممن التقيت بهم وتحدثت اليهم في غضون السنوات الخمس الماضية لتعذر وضع هذا الكتاب. ويصعب هنا أن نورد كل أولئك الذين قدموا لى يد العون، ومن اذكرهم فيما يلى من فلسطينيين وغيرهم ليسوا سوى أولئك الذين قدموا إلى مساعدة خاصة وخصونى بكرم الضيافة أمثال موسى العليمى ومحمد جبار الله واسرائيل اسحق وروحي الخطيب من القدس، وأحمد طوقان وانطون عطا الله من عمان، وحاتم أبو غزالة وعائلته من غزة، وتوفيق زايد وسليم جبران عطا الله منصور من الناصره، ويوسف رضا من نابلس، وعلى سعد من دمشق، وعبد المحسن قطان وخالد الحسن من الكويت، ونبيل حجازى وزكى نسيبه وابراهيم ابراهيم من اتحاد الإمارات العربية، وليلى البارودى ووليد جنبلاط وسامى العليمى وأفراد من عائلة السعيد والدمشقى وأبو الجبيان من بيروت .

كما أتى أشكر سیرجون جلوب لما قدمه لى من معلومات حول الأردن. وسير كريستوفر تشانسيلور الذى سمح لى أن أنقل عن وثائق أبيه، وأخص بالشكر جون ويدوامى وروبرت سوان وفيليب مانسل والغى ماليس الذين قرأوا المخطوط وأسدوا لى نصيحة قيمة حول مضمونه، وكذلك فيليدا اشتون التى ساعدتني فى نقل الأسعاء العربية إلى الانجليزية وهيلارى متولى التى نسخت المخطوط مرتين .

ج.د

مارس ١٩٨٠م

## الفهرس

٧	كلمة شكر
٩	مقدمة ، تخطات وخرافات
١٨	الجزء الأول ، فلسطين والفلسطينيون قبل عام ١٩٤٨
١٩	١- فلسطين العربية
٢٨	٢- ظهور الشخصية القومية
٦٧	الجزء الثاني ، السنوات الجديدة
٦٨	١- العجرة الجديدة خروج ٤٧ ~ ٤٨
٨٨	٤- المنفيون
١٠٨	٥- العرب في اسرائيل
١٤١	٦- القدس والأراضي المحتلة
١٧٢	الجزء الثالث ، الحرب والسياسة
١٧٤	٧- تنظيم المقاومة
٢٠١	٨- منظمة التحرير الفلسطينية والعالم العربي
٢٢٠	٩- لبنان والفلسطينيون
٢٤٢	١٠- الحرب الأهلية في لبنان
٢٦٠	١١- فلسطين والمجتمع الدولي

٢٧٢

الكراعات

فلسطين العربية

ثلاث مراحل للاستيلاء على فلسطين

١٩٤٧ - ١٩٤٨ - ١٩٦٧

## المقدمة

### تخيلات وخرافات

فى قلب فلسطين القديمة يرتفع جبل ايال (EBAL) شاهقا فوق قباب نابلس ومآزنها بمنحدراته القاحلة الكثيرة التى لا يخفف من كآبة حجارته، التى تبدو وكأنها لا تنتهى، سوى بعض الماعز والشجيرات الشوكية، ومن قمة الجبل تمتد أراضي فلسطين فى كل اتجاه: إلى الشمال الناصرة والملاح غير الواضحة للجليل، وإلى الشرق تمتد، عبر نهر الاردن، تلال موآب فى خط مستقيم إلى ما وراء البحر الميت، وإلى الجنوب تقع القدس، وإلى الغرب، عبر ضباب خفيف ينعطف السهل الساحلى حول جبل الكارميل ابتداء من عكا إلى غزة وعسقلان .

أسماء مألوفة ومعالم طبيعية من كثرة ما وصفت؛ شكى رجل انجليزى فى عام ١٨١٢ من أنه «قد يعتقد أن الذين كتبوا حول هذا الجزء من العالم قد استنزفوا هذا الموضوع ولم يتركوا ما يمكن أن يضيفه كاتب آخر»، يبدو أن تلك الشكوى لا تنطبق على السكان اذ ندر أن اهتم بهم الرحالة الذين كتبوا عن فلسطين فلم يكن يهتمون بهم كشعب، بل انصب اهتمامهم على الماضى. وبعد انسحاب الامبراطورية العثمانية من سوريا طمع الغرب فى فلسطين على أساس تاريخها اذ منذ أن اصطبغت بديانتان شرقيتان؛ اليهودية والمسيحية، بالصبغة الغربية وجد من طالب بضرورة فصل موطن هاتين الديانتين عن العالم الشرقى. فالصليبيون والمبشرون والصهاينة طالبوا بفلسطين لما كانت عليه فى الماضى دون إهتمام بواقعها الفعلى كدولة عربية بل وأساسا إسلامية- هكذا كانت مثل هذه المعاملة لسكانها .

أن ما يتسم به هذا القرن من جهل لا يقل سؤا عما كان عليه أجدادنا. وعلى الرغم مما تعرضت له فلسطين من غزوات وتغيير حكامها كان الاستقرار العرقى هو

الطابع المميز لسكانها عبر آلاف السنين، وظلوا طيلة الألف والثلاثمائة سنة الماضية لهم ثقافة عربية لا لبس ولا غموض فيها وإن كنا قد حاولنا أن ننسأها أو نغفلها، بل زعمنا في بعض الأحيان، أنه لا وجود لها. ففي إعلان بلفور عام ١٩١٧ - تلك الوثيقة التي قررت بصورة فعالة مستقبل العرب الفلسطينيين وكانوا يشكلون آنذاك ٩٠ بالمائة من السكان لم يوصفوا الا بالجماعات غير اليهودية الموجودة بل أن بلفور نفسه، كوزير للخارجية البريطانية إترف؛ أنه في فلسطين لا نقترح حتى المرور بشكلى مراعاة رغبات السكان الحاليين «فكان إعتقاده ان الصهيونية أكثر أهمية من رغبات وأهداف ٧٠٠ ألف عربى يعيشون في تلك البلاد القديمة» كما كان الصهاينة القدامى يتجاهلون بدورهم سكان البلاد الحقيقيين، وطبقا لما ذكره اليهودى الروسى، أشرف جنسبرج فانهم كانوا يعتبرون الفلسطينيين اما همجاً يعيشون كالحيوانات أو أنه بكل بساطة لا وجود لهم.

وبعد سنوات عديدة أعلنت جولدا مائير، رئيسة وزراء إسرائيل، أنه لم يكن لهم، فى الواقع أى وجود «لم يكن هناك ما يسمى بالفلسطينيين.... لم يكن فى فلسطين شعب يعتبر نفسه شعباً فلسطينياً ونحن جئنا وطردهنا وانتزعنا منه بلاده أنه لم يكن موجوداً» وترجم الوزير الإسرائيلى للتعليم هذه الرواية الخيالية إلى سياسة رسمية بقوله للمعلمين الإسرائيليين: «من الأهمية بمكان أن يعرف شبابنا أننا حين عدنا إلى هذه البلاد لم نجد بها أية أمة أخرى وأنه بالتأكيد لم تعش هنا أية أمة منذ مئات السنين». وأوضح أن العرب الذين إلتقوا بهم لم يكونوا سوى لاجئين مصريين حلوا بالبلاد فى منتصف القرن التاسع عشر.

لم يكن هذا اللون من الدعاية مقنعاً خارج حدود إسرائيل لأن الكثيرين من رحالة ونجار ومبشرين وجنود شاهدوا بأعينهم الفلسطينيين ويعرفون أنهم موجودون، وأن

كانوا يعرفون عنهم أكثر من ذلك .

لكن مواقف الغرب تجاه العرب إنما حدودها بصفة تكاد تكون دائمة، الجهل أو التعصب أو كلاهما، لقد تشكلت بعض هذه المواقف بدون وعي على أساس ما ورد في التوراة؛ الإسرائيليون ضد الفلسطينيين مترفي مصر وغيرها «كما تشكل بعضها بفعل التعصب الأوروبي ضد الإسلام الذي يرجع إلى غزوات العرب لأسبانيا وفرنسا في القرن الثامن عشر والذي ينعكس في الأدب الأوروبي ابتداء من» اغنية رولاند حتى ليبانتو لشسترتون»، كما يعبر عن هذا التعصب تعبيرا صادقا عنوان كتاب لعמיד نورويتش في عام ١٦٩٧: «الطبيعة الحقيقية للخداع البين في حياة محمد» .

وفي القرن التاسع عشر عندما أخذت أعداد السائحين إلى الشرق الاوسط تتزايد شرع الأوروبيون في تقسيم العرب إلى فئات: عرب المدينة ويصفونهم بالقتادة، والخمول، والفساد، ويرمونهم بالإحتيال والخديعة فيصفهم جورج ووكر في قصص «ترولوبى» بأنهم جنس منحط ومزيف وجبان وفي الجانب الاخر يقف عربى الصحراء الذى يمتونه بالجاثل الطليق فى الافاق الواسعة، والتبيل ذو الدماء النقية الذى لايهتم بألوان الترف، فصورة الباشا بكرشه وحريمه تقابلها صورة البدوى بوجهه الشبيه بالصقر وهو يكابد مشاق الصحراء، ولعل هذا الافتتان الرومانتيكى القائم إلى حد كبير، على الجهل كان أسلوبيا انجليزيا خالصا وإن أخذ به بعض الفرنسيين. وكان كلما حظى العرب الرحل بالإعجاب المطلق ازداد الإزدراء بأهل الحضر. ويفسح فى يوميات الأوروبيين، ومذكراتهم للتغنى بمحاسن البدو مساحات لاتقل عن تلك التى تخصص لوصف فساد وشرور المدن وأهلها، وليس أدل على ذلك النمط الرومانتيكى من رد فعل ارثر واتشوب، المتدوب السامى البريطانى فى فلسطين حين قال عند لقائه بفرد عربى :

«لا يسع المرء إلا أن يشعر بأن الدماء النبيلة التى جرت فى عروق صلاح الدين

لا تزال تجرى في عروق شيوخ هذا العصر .

إن كتابات رجال أمثال دوفنى، وبيرتون، ومآثر لورانس، وجلوب- اولئك الذين عرفوا البدو وعاشوا معهم- هى التى نشرت الإعجاب بحرب الصحراء. ولم يبدأ هذا الافتتان يضعف إلا باكتشاف النفط، وإدراك أن البدوى يمكن أن تفسده الثروة المادية بنفس السهولة التى تفسد أى شخص آخر، ومع ذلك لا يزال إعجابنا بالبدوى قائما إلى حد ما، فالسائحون فى القدس تقلهم العربات المكيفة لالتقاط صور للبدو الحقيقيين وهم على ظهور إبلهم، وإذا كانت الصورة قد فقدت بريقها، فإنها أجمل من أن تضيع كلية وكثيرا ما يصور رسام الكاريكاتير فى الصحف الشعبية، العرب بشياهم الفضفاضة وإنوفهم المعقوفة وهم فوق ظهور الإبل بهدف ترك الانطباع بالقدارة .

ولامراء من أن مواقف الغرب تجاه العرب إنما تأثرت بالمحاولات الصهيونية الرامية إلى تصويرهم بالشعب الجاهل المتخلف الذى يحتاج إلى معونة أجنبية تمكنه من التطور. ومن ثم فإن باحثا يهوديا مثل روكليف- لاماى يؤكد فى تعليقه على قدرة القرى العربية وثقافة ملابس الأطفال ونقص التعليم بأن « العربى عاجز تماما عن تطوير بلاده بمفرده »، وكان الزعيم الصهيونى حاييم وايزمان مغرماً بهذا التكتيك ولذا ففى رسالة بعث بها فى عام ١٩١٨- إلى بلفور- ولم يكن قد زار فلسطين اطلاقاً- أراد أن يحاضره فيها عن السمات المميزة للعربى الفلسطينى قال :

« بالرغم من مهارته السطحية وسرعة بديته فإنه خائن بطبيعته ويمارس الابتزاز ما استطاع إلى ذلك سبيلا فإن كان مستولاً فهو فاسق وفساد وغير كفء، يندم على الأيام الخوالى التى كان فيها «البقشيش» هو الوسيلة الوحيدة التى تنجز بها الأمور الإدارية، وإن كان فلاحاً فإنه متخلف عن عصره بما لا يقل عن أربعة قرون، وإن كان من الاعيان فهو أمى وغير أمين، شره، وغير وطنى، فضلا عن أنه غير كفء » .

وفي غضون الثلاثينيات من هذا القرن عندما بلغت الخيالة ذروة تقدمها، باتت تستخدم في تأكيد مثل هذه الأفكار عن الفلسطينيين وقد عرض أحد هذه الأفلام في الولايات المتحدة في عام ١٩٣٥ وقامت بتمويله المنظمة الصهيونية «صندوق مؤسسة فلسطين» وكان هدف الفيلم الوحيد وعنوانه «أرض الميعاد» هو عقد مقارنة بين المجتمع المتخلف في فلسطين العربية والحماس المثالي للرواد الصهاينة وبدأ الفيلم بلقطات لشبة الجزيرة العربية ومصر (وأن كان الهدف هو إقناع الجمهور بأنها لقطات لفلسطين) يعقبها تعليق سريع: «هذه هي الأرض التي وعد الله بها إبراهيم، لقد عاش اليهود ذات يوم في العالم الإسلامي حين كان مركزا لحضارة، عظيمة، وعندما طرد اليهود أخذت تلك البلاد في الإنهيار وعادت الحياة البدائية، ويمضي الفيلم في سرد كيف يعمل الصهاينة المجدون على القضاء على الحياة البدائية، فبينما كانت التربة منذ عشرين عاما أما مستنقعات أو ينبتشها محراث ليس إلا. تغير اليوم كل شئ وبدأت حياة جديدة وكادت المحاصيل تزرع على مدار السنة، بل هناك زعم بأن برتقال يافا ذاته الذي عرفه الصليبيون هو من نتاج النشاط اليهودي، فحقول البرتقال أو كما يسمونه بالعبرية «التفاح الذهبي» يغطي الأرض التي لم تكن تنبت حتى الشوك منذ سنوات عشر خلّت .

ليست هذه المواقف تجاه الفلسطينيين قاصرة على الصهاينة فقد كانت، وربما لاتزال، واسعة الانتشار بين المعاصرين من الصحفيين ومعلقى الإذاعة والتلفزيون مما جعل آدموند ويلسون وهو واحد من أبرز كتاب أمريكا في هذا القرن من أن يكتب مثل هذا الهراء المقلد في عام ١٩٥٦ حين قال: هكذا فإن وضع العرب في إسرائيل - كما يراهم المرء في البلاد - شبيه بوضع «النافاهو» في جنوب غرب أمريكا؛ إناس متخلفون على نحو يدعو إلى الشفقة، كان طابعهم في يوم من الأيام، وأن كان لا يزال صوريا، كما أنهم انفصلوا عن المجتمع الرئيسى وأن كانوا يشيرون مشكلة متكررة... فقي مدينة

كبيرة مثل عكا تثير قذارة الشوارع المكتظة في نفس الإسرائيلي عين ما تثيره من استياء في نفس أى زائر غربي، فمناظر مجموعات كبيرة من الأولاد الفقراء الأميين المرضى وهم يصبون ويشحدون في الشوارع الضيقة القذرة يثير في نفس اليهودى ربعا أخلاقيا .

كذلك سجل آرثر كوستلر عبارة اشد بشاعة في علم ١٩٤٩، وإن كان من غير المحتمل أن يفعل ذلك الآن، ففى وصفه لمأساة ١٩٤٨ عندما تحول إلى المنفى أكثر من ثلاثة أرباع مليون فلسطينى، كتب يقول: أن المسنين يشدون على ظهر الحمار حشية ووعاء القهوة النحاسى، فالمرأة العجوز تقود الحمار الذى يمتطيه الرجل المسن وقد التف بكوفيته وغرق فى تفكير عميق فى ضياع فرصة إغتصاب حفيدته الصغرى .

وبينما ينظر الغرب بازدراء إلى العالم العربى، فإن إحدى الصور المعاصرة الأكثر إلحاحا التى ترسم للعربى الفلسطينى هى صورة جديدة تماما وباتت كلمة فلسطينى ترسم فى ذهن الملايين من البشر صورة الارهابى، وهى صورة شخص فظ مراوغ يحمل مدفعا ومستعد لأن يقتل البشر فى أى سن ومن أى جنس أو لون دون سبب واضح .

تلك هى الصورة التى تسمى الصهيونية إلى غرسها فى الأذهان لأنها تضعف، ولا شك، التعاطف الدولى مع الفلسطينيين. ولقد وصف مناحم بيغن، رئيس وزراء إسرائيل منظمة التحرير الفلسطينية بأنها أشر المنظمات باستثناء منظمات القتل النازية، فى تاريخ البشرية .

ذلك على الرغم من أن ارجون زفاى ليوفى وهى الجماعة الارهابية التى قادها بيغن نفسه فى الأربعينات قد قتلت بعد ظهر يومين إثنين قدر ما قتل الفلسطينيون خلال خمسة عشر عاما من النضال ضد إسرائيل، فلقد أدى تسف فندق الملك داود فى ٢٢ يوليو عام ١٩٤٨ ومذبحة دير ياسين يوم ١٠ أبريل عام ١٩٤٨ على يد

جماعة ارجون إلى مقتل ٣٤٥ نسمة .

لكن صورة الفلسطيني كإرهابي أقل شيوعاً في العمل الأدبي منه في الرسوم الكاريكاتورية أو في أعمدة الرسائل في الصحف وأن ظهرت مثل هذه الصور من حين لآخر كما هو الحال في رواية هارولد روبين المفزعة التي صدرت بعنوان «القرصان» ورواية الرعب «الشرقي» لاريك اميلر، فالوعد في الرواية الأخيرة، وهو قائد حرب عصابات أسمه «غالد» (حقيقة أنه لا يوجد فلسطيني أو عربي بهذا الاسم تدل على جهل الكاتب بالموضوع الذي يتناوله)، هو شخص بغض لا يطاق، الصق به اميلر جميع الصفات التي يرغب الصهاينة في خلقها على الفلسطينيين، فهو دائم الحديث عن قتل المدنيين الإسرائيليين، وقصف تل أبيب بصواريخ الكاتوشا أو الخوض في بحر من الدماء، أما الشخصيات العربية الأخرى في تلك الرواية فهي الأنماط القديمة التي توصف بأنها «تتنة» أو «كريمة» أو بها آثار الجدرى .

ومن بين الفلسطينيين في العالم الذين يتراوح عددهم ما بين (٣,٥ أو ٤) مليون نسمة، فإن عدد المسلحين يقل عن واحد بالمائة، فبعض الفلسطينيين يعيشون أقلية في الضفة الغربية لنهر الأردن وقطاع غزة، أما الغالبية فهم اللاجئين المنتشرون في جميع أنحاء الشرق الأوسط ولم يندمج في الدول المضيفة غير نزر قليل، ذلك لأن الوعي القومي الفلسطيني والشعور بالشخصية المستقلة أقوى من حملهم على الاندماج، إنه شعور طابعه القوة والاصرار، لا يشعر به غير شعب سلب منه وطنه .

هناك في جامعة بيرزيت بالقرب من رام الله لوحة معلقة على أحد الجدران فوقها نص منقول عن جورج برنارد شو يقول: «لو حطمت قومية أمة فإنها لا تفكر إلا في إعادتها إلى ما كانت عليه، ولن تصنى لأي مصلح أو فيلسوف أو واعظ حتى تحقق مطلبها القومي، ولن تهتم بأي عمل، مهما كان حيويًا سوى وحدتها وحريتها .

الجزء الأول

فلسطين والفلسطينيون قبل عام ١٩٤٨

## الفصل الأول

### فلسطين العربية

فى عام ١٩٤٨ فقدت فلسطين اسمها وأراضيها، كما فقدت عددا كبيرا من شعبها، فقد استولت على ثلاثة أرباع الأراضى حركة ظل هذا الشعب يقاومها زهاء نصف قرن من الزمان، واستولت مملكة شرق الاردن على الجزء الأكبر من الربع الباقي، ولم يبق أرضا فلسطينية غير قطاع من الأرض هو غزة، وحتى هذا القطاع فرضت عليه مصر سيطرتها، لقد تحول أكثر من نصف سكان فلسطين إلى لاجئين فى ربوع العالم العربى: فى لبنان وسوريا وشرق الأردن ومصر والكويت كما اتجهت حفنة منهم إلى الغرب: إلى بريطانيا وأستراليا والولايات المتحدة، وحالف بعضهم الحظ وتسنى له مواصلة الحياة فى مناطق لم يستول عليها الصهانية، وظل فى قراهم اقل من العشر ليصبحوا مواطنين إسرائيليين .

لقد تحطم المجتمع الفلسطينى وحملت الأمة، التى ناضلت فى سبيل استقلالها منذ انهيار الامبراطورية العثمانية، كفاحها معها إلى المنفى حيث تحلم بالعودة وتخطط لها، ولم ترض قط أن تكون وحدها بين جميع الشعوب العربية محرومة من حق تقرير مستقبلها فوق أرضها .

فأى نوع من الناس اولئك العرب الفلسطينيين الذين أصبحوا، مثل اليهود والأرمن، احد شعوب العالم المشتين؟ وكيف يشكلون شعباً مستقلاً له شخصية متميزة؟

قبل أن تتسنى لنا الاجابة على أى من هذين السؤالين، علينا أن نعود إلى ما قبل عام ١٩٤٨، حين كان الفلسطينيون لا يزالون يعيشون فى أرضهم وأن نبحث فى ظروفهم الثقافية والاقتصادية، وفى عاداتهم والأسس التى يقوم عليها مجتمعهم .

لقد ترك الغزاة بصماتهم على سكان فلسطين منذ أيام الاموريين، ربما تحدثوا الآرامية وتقبلوا العادات الاغريقية لكنهم ظلوا كما هم، فالفلسطينيون والكنعانيون الذين عاشوا في القرن العاشر قبل الميلاد لم يغادروا البلاد اطلاقا ويقوا في فلسطين لتشكل سلالاتهم جوهر سكان البلاد الأصليين .

أما الحدث الذى غير بشكل حاسم الطابع المميز للبلاد، فهو الفتح العربى فى القرن السابع الميلادى، فقد جاء العرب المسلمون ومعهم نظام حكمهم ولغتهم وعقيدتهم فتقبلتها غالبية السكان واصبحت فلسطين وشعبها عربا، وأن ظلوا نفس الشعب دون أن يحدث تغيير عرفى يذكر إذ كان الفاتحون العرب قلة. ويوضح البروفيسير رودنسون ذلك يقول: «أن جماعة عربية صغيرة من شبه الجزيرة العربية فتحت البلاد فى القرن السابع الميلادى، وسرعان ما اصطبغ الشعب الفلسطينى بالصبغة العربية فى ظل الحكم العربى كما اصطبغ من قبل بالصبغة الآرامية بل وبالصبغة الهيلينية إلى حد ما. واصبح الشعب الفلسطينى عربيا على نحو يتعذر معه أن يصطبغ قط بالصبغة اللاتينية أو العثمانية ذلك لانه ذاب فى الفاتحين.

وعلى الرغم من أن فلسطين القديمة يمكن رؤيتها من فوق جبل ايبال، إلا أن تباين الأرض والشعب يدعو إلى العجب، فغزة تشبه احدى مدن دلتا النيل كما يشبه سكانها، ييشترتهم السمراء، المصريين، وفى الجليل عدد كبير من الشقر ذوى العينين الزرقاوين كما يوجد فى اريحة عدد من الزوج الذين لانربطهم أية صلة عرقية بالبدو الرحل الذين على بعد أميال قليلة فى الصحراء، ولعل تلك هى الفروق الصارخة التى يشاهدها من يزور الأماكن القديمة حيث يعيش فلسطينيون .

ويقدر عدد الفلسطينيين حاليا بما يتراوح بين ٣,٥ و ٤ مليون نسمة، مما يدل على الزيادة الموهولة فى عدد السكان خلال السبعين سنة الماضية، لقد كان عدد

الفلسطينيين حسب التعداد التركي للسكان الذى اجرى عشية الحرب العالمية الأولى ٦٣٠,٠٠٠ نسمة أما فى التعداد البريطانى الذى اجرى فى عام ١٩٢٢ فقد بلغ عددهم ٦٧٠,٠٠٠ نسمة وذلك باستبعاد البدو الذين بلغ عددهم ٧١,٠٠٠ نسمة. وكشف التعداد البريطانى الثانى الذى اجرى فى عام ١٩٣١ عن أن أجمالى السكان العرب قد تجاوز ٨٥٠,٠٠٠ نسمة، وحسب التقدير الرسمى الذى اجرى فى مارس ١٩٤٧ قفز عددهم مرة اخرى ليصل إلى ١,٣٠٠,٠٠٠ نسمة. هكذا يتضح أن عدد الفلسطينيين العرب قد تضاعف خلال الثلاثين عاماً ما بين إنهيار الإمبراطورية العثمانية وقيام دولة إسرائيل، كما أنه خلال الثلاثين عاماً التالية بلغ عددهم ثلاثة أضعاف ما كانوا عليه .

وابتداء من القرن السابع عشر أخذ السيون، وهم أكبر طائفة إسلامية، يشكلون الغالبية الساحقة من السكان، لكن فلسطين تضم عادة مجموعة من الأقليات التى وفد بعضها نتيجة لحدث تاريخي يعينه، ففي الثمانينات من القرن التاسع عشر، وجد لورنس اوليفانت تسع جماعات عرقية أو دينية متميزة تشغل بالأرض بالقرب من حيفا شملت العرب المسلمين من بوسينا وهرزجوفينا التى رفضت أن تعيش تحت الحكم النمساوى، والشراكسة من القوقاز ومستوطنة يهودية فى زيمارين وقبيلة بدوية من السلاحقة الاثراك ومستعمرة من التمبرلز الالمان فى حيفا. أما المهاجرون الآخرون فقد شملوا البهايين من بلاد الفرس وبضعة آلاف من البربر من شمال افريقيا .

أما الشيعة، وهى طائفة إسلامية تشكل أقلية رئيسية، فلم تضم يوماً أكثر من بضعة آلاف نسمة، وتعتبر قراهم فى الشمال إمتداداً لطائفة الشيعة الكبيرة فى جنوب لبنان، شأنهم فى ذلك شأن الدرروز الذين يتركز إخوتهم فى العقيدة فى منطقة الشوف بجنوب لبنان وفى جبل الدرروز بسوريا. وبلغ عدد الدرروز فى فلسطين فى نهاية

الحرب العالمية الأولى نحو سبعة آلاف نسمة منتشرين فى عدد من قرى الجليل وجبل الكرمل؛ وفى القرن التاسع عشر كان الدروز يحظون بتقدير الأوروبيين ولاسيما السياح الانجليز. ومن بين ما وصفوا به «الصلابة» و «الشجاعة» و «الاستقلال»، فقد وصفهم ميجور كوندر، عالم الجغرافيا البريطانى، بأنهم «كفاء» و «شجعان» وأكثر شعب سوريا جاذبية بعد السامريين (طائفة صغيرة فى نابلس) وأعرب عن أسفه لأن شخصيتهم المستقلة تجعلهم لا يصلحون كخدم، وذكر لورنس أوليفانت أن الدروز هم السكان الوحيدون الذين يمكن الإعتماد عليهم وأن الحياة فى وسطهم أفضل منها بين الطبقات الأخرى.

وكان المسيحيون أكبر الأقليات وأهمها، وفى عام ١٩٤٤، قدرت السلطات البريطانية عددهم بحوالى ١٣٥.٠٠٠ نسمة، وهكذا كانت تشكل أكثر بقليل من عشر السكان الناطقين بالعربية؛ وبعض المسيحيين من سلالة الذين إعتنقوا المسيحية فى القرنين الثالث والرابع والذين ظلوا على عقيدتهم طيلة الحكم الإسلامى، فعائلة «عطا الله» مثلاً، عاشت كمائلة مسيحية فوق نفس قطعة الأرض فى القدس زهاء ١٥٠٠ سنة، كما أن بعضهم ينتمى إلى القبائل المسيحية التى قاتلت إلى جانب الجيوش الإسلامية ضد الإمبراطورية البيزنطية فى القرن السابع. هذا بالإضافة إلى الذين ينتمون لأصول أكثر حداثة مثل أسلاف صليبيين أو من اعتنقوا مبادئ إحدى الطوائف المسيحية الغربية فى القرن التاسع عشر .

والمسيحيون، من الناحية التاريخية، هم مجتمع حضرى، فقد تركزوا باستثناء الجليل، حيث كان يوجد بعض القرى المسيحية، فى المناطق الغربية وفوق التل الرئيسى، ويوجد فى القدس، ويافا، وحيفا، عدد كبير من المسيحيين، كما كانوا فى رام الله، والناصرية، وبيت لحم يشكلون الغالبية. وابتداء من منتصف القرن التاسع عشر،

عندما بدأت البعثات المسيحية الأجنبية فى فتح المدارس فى القدس ورام الله أساسا، أصبح المسيحيون يتمتعون بمستوى رفيع من التعليم، ففى الوقت الذى كان فيه المسلمون يتلقون تعليمهم فى المدارس الحكومية حيث كانت العلوم تدرس باللغة التركية، أو فى مدارس إسلامية خاصة ندر أن وفرت التعليم الثانوى، استفاد المسيحيون من مدارس ممتازة مثل «كوليج دى فريز» ومدرسة «سانت جورج» فى القدس «فرتوز جيرلز أند بويز» التى أنشأتها طائفة «الكويكرز» الأمريكية فى رام الله .

كانت الطائفة المسيحية مقسمة بالتساوى تقريبا بين الكنيسة الارثوذكسية الشرقية ومنافستها اللاتينية التى تضم الكنيسة الكاثوليكية الرومانية والكاثوليك اليونانيين ومقرهم حيفا، ومجموعات أصغر مثل الموارنة (وهم فرع من الطائفة المارونية فى لبنان) والكاثوليك السوريين والارمن، كما كانت هناك بعض الجماعات الأصغر مثل الأقباط والانجليكان والارثوذكس السوريين المنتشرين حول القدس، ومع ذلك كانت طائفة الارثوذكس اليونانيين هى الطائفة الرئيسية منذ فشل الصليبيين، لكن هذه تعاني منذ القرن السادس عشر من إنقسام داخلى جعلها ضعيفة سياسياً فابتداء من عام ١٥١٧، عندما استولى الاتراك على القدس سيطر على الكنيسة الارثوذكسية فى فلسطين رجال من الطائفة اليونانية فى داخل الإمبراطورية العثمانية، ومنذ عام ١٥٤٣، جاء كل بطريرك من اليونانيين وبالتالي كانت من بينهم معظم الأنثقة وكبار رجال الدين، لكن هذه السيطرة اليونانية ورفض الكثيرين منهم تعلم اللغة العربية أثار استياء صغار رجال الدين وجمهور الشعب الذى كانت غالبية عربا حتى أن القوات التركية فى عدة مرات اضطرت إلى التدخل لحسم أعمال العنف (كما حدث فى عامى ١٨٧٢ و ١٩٠٨) .

لقد كانت الغالبية الساحقة من الشعب الفلسطينى، نحو ٨٥ بالمائة من السكان،

من المسلمين السنيين الذين يتنمى معظمهم إلى المذهب الشافعى، أما البقية الباقية فكانت مقسمة بين المذهبين الحنفى والحنبلى، وبالرغم من أن مدينتى القدس والجليل كانتا تمثلان المركزين الدينيين، فإن السنيين انتشروا فى جميع أنحاء فلسطين وسيطرت على الحياة السياسية، ويحكم أنهم مجتمع ريفى فى أساسه، بعكس اليهود أو المسيحيين، فإنهم كانوا يشكلون فى أواخر عهد الإمبراطورية العثمانية، السواد الأعظم من مزارعى فلسطين .

ولم تكن فلسطين، على النقيض من سوريا فى الشمال، بلاد الضيعات الواسعة، كانت هناك، ولاشك، بعض الأسر التى تمتلك مساحة تتراوح ما بين عشرة وخمسة عشر ألف فدان، ويعتقد أن أسرة الشواف فى غزة تمتلك ما يقرب من خمسة وعشرين ألف فداناً، ومع ذلك كانت معظم أراضي فلسطين مقسمة إلى ملكيات صغيرة، وكان نصف المزارعين يعيشون فى مستوى الكفاف ويزرعون مساحات تقل عن ثمانية افدنة. هذا فضلاً عن أن ثلث الأسر الريفية لم تكن تمتلك أية أراضى مما اضطرهم إلى العمل لحساب جيرانهم، ومع نمو السكان (بمعدل اسرع بكثير من الزيادة فى المدن) انخفض متوسط مساحة ملكيات الأراضى من حوالى عشرين فداناً فى عام ١٩٣٠، إلى نحو عشرة افدنة فى عام ١٩٤٤ حسب الإحصائيات البريطانية (لقد تضخمت هذه الأرقام إذ شملت الضيعات الكبيرة، ولولا ذلك لكان متوسط مساحة الملكيات أقل بكثير) .

وكانت هناك أنظمة عديدة لحيازة الأرض فى فلسطين فى ظل الحكم العثمانى، فإلى جانب إستجار الأرض من كبار الاقطاعيين، أو المؤسسات الخيرية الدينية كان «الملك» أو «الميرى» هو أهم النظم المتبعة فى حيازة الأرض، فالملك هو نظام التملك الحر وإن كان من حق الأبناء، وفقاً للشريعة الإسلامية، أن يرثوا ما لا يقل

عن ثلثي ممتلكات ابيهم مقسمة بين البنين والبنات بنسبة ١: ٢، أما الميرى فهو النظام الذى كان متبعاً فى معظم انحاء فلسطين، فكانت الاراضى تعتبر، من الناحية الفنية، ملكاً للدولة وتؤجر للأفراد، ومن الناحية الفعلية كان المستأجرون يتمتعون بحق الملكية إذا كان يوسعهم تركها لابنائهم من بعدهم رغم انها لم تكن مسجلة بأسمائهم .

وكان تنوع الإنتاج الزراعى فى فلسطين يرجع إلى المفارقات الحادة فى المناخ والثروة من منطقة إلى أخرى، فمناخ وادى الأردن شبه استوائى وينتج التمور وبرتقال اريحا الرائع، وإلى جوار البحر بالقرب من يافا يزرع البرتقال الشموتى، وبين السهل الساحلى ونهر الأردن، رقعة تمتد مسافة ثلاثين ميلاً، تسودها أحوال مناخية شبيهة بأحوال مناخ جبال الألب، ومن أعالي نهر الأردن فى منتصف فصل الصيف يمكن رؤية ثلوج جبل الشيخ وأشجار صنوبر الجليل، كما أن المناطق التى تنمو بها الفاكهة فى غزة لا تبعد سوى اميال من صحراء النقب أو التلال الجرداء فى جنوب القدس، هكذا يتضح بجلاء السبب فى تنوع الزراعة الفلسطينية: النبذ من النطرون وبيت لحم، والزيتون من نابلس والجوز من جنين والقمح من اسدريون والسمن من حيفا واللوب من رام الله والموز من يافا والبطيخ من طولكرم، لقد تركز النشاط على الزراعة لأن مستوى تربية الماشية كان ضعيفاً، وغالباً ما كانت الحمير تستورد من قبرص أو سوريا ولم يكن صوف الاغنام يصلح لغير صناعة السجاد .

وبالرغم من تنوع الفواكه والخضراوات فإن فلسطين تعد أرضاً زراعتها صعبة، والأرض الوحيدة الخصبة بطبيعتها فهى السهل الساحلى ووادى اسدريون، اما البقية فهى أساساً تلال جييرية منحدره. وتعتمد معظم فلسطين على مياه الأمطار، فإن لم يسقط المطر تعذر وجود مصدر بديل للمياه، وإمتداداً من جبل الزيتون حتى اريحا لا توجد أية مياه طبيعية على الإطلاق، كما يعمل المناخ ضد السكان، فحرارة وادى

الأردن المهرقة التي تصل إلى ٤٨ درجة مئوية في الصيف لا تساعد على العمل اليدوى، كما تتعرض البلاد من حين لآخر، إلى جانب الجفاف لكوارث طبيعية أخرى مثل الزلازل ووباء الجراد، ذلك الوباء الذى يقع بصفة تكاد تكون منتظمة كل ست سنوات، أو نحو ذلك. لقد دمر الجراد فى عام ١٨٨٦ معظم أشجار الزيتون فى فلسطين .

وهناك ايضا مشكلات هى من صنع الإنسان، وفى تعليق على الكساد الإقتصادى فى عام ١٨٧٩ كتب القنصل البريطانى فى القدس يقول: «أن استنزاف جميع القادرين من الرجال للحرب الأخيرة وندرة المحاصيل ونقص الأمطار وارتفاع الأسعار وما لحق بالمئات من خسارة مدمرة نتيجة لعدم سداد فوائد سندات الحكومة التركية..: هذه العوامل مجتمعة قد اسفرت عن فقر مدقع واسع النطاق وعن كساد تجارى وصناعى .

ومضى القنصل البريطانى ليزعم بأن فساد الادارة التركية زادت من سوء هذه الأوضاع. والواقع أن المسئولين العثمانيين كانوا فى الغالب فاسدين وانصبت الضرائب على الزراعة والتجديد الاجبارى على سكان الريف ممن يعيشون فى فقر شديد، وإبان الحرب العالمية الأولى إزداد وضع الفلاحين سوء عندما قطعت معظم غابات فلسطين واستخدمت فى الوقود، وفى ظل الإنتداب البريطانى تحسنت أحوال المعيشة بإدخال الخدمات الصحية وبداية التدريب على الزراعة، ومع ذلك كانت صرامة الاساليب البريطانية فى تحصيل الضرائب على النقيض تماما من اساليب العثمانيين غير الكفاء.

ولم يتسن للفلاح الفلسطينى من أن يرتفع بمستوى معيشته فوق حد الكفاف، فقد كانت الأرض والمناخ والعثمانيون يحملون جميعهم ضده، ومع ذلك كانت

الزراعة صناعة تتسم بقدر معقول من الكفاءة، وكما ذكرت لجنة سيرجون هوب سمبسون في تقريرها في عام ١٩٣٠ م :

«الفلاح ليس كسولا ولا يفتقر إلى الذكاء، فهو ماهر وخبير زراعى كفء، ومن المؤكد أنه لو اتاحت له الفرصة لتعلم أساليب أفضل، ولو توافر له رأس المال اللازم لاستخدام تلك الأساليب لسارع فى تحسين وضعه ..... أن حث الفلاح للأرض يرقى فوق مستوى النقد، وإعداد حقله للغرس لا يقل فى مستواه عن إعداده بأية معدات أفضل، بل وفى بعض الاحيان يفوقها جميعا، لكن البطء هى نقطة الضعف الوحيدة.

كانت فلسطين قبل عام ١٩٤٨ تضم أكثر من ستمائة قرية وكان عدد كبير منها يشكل مجتمعات زراعية مستقلة يتركز نشاطها فى انتاج ما يكفيها بدلا من الاهتمام بأسواق المدينة، ولما كانت معظم هذه القرى فى مناطق نائية، لم يهتم الفلاح كثيرا بتصدير انتاجه، وانحصر اهتمامه فى سد حاجته وحاجة أسرته، ومن ثم كان يزرع العديد من المحاصيل فى مساحات صغيرة، كما كان يزرعها بترتيب معين فينضج محصول بعد الآخر فيوفر، بذلك، لنفسه الغذاء على مدار السنة. وكان يخدم هذا النمط من الزراعة وجود مساحات من الأرض على ارتفاع متباين يتناسب مع حاجة الفلاح إلى تنوع محاصيله، فالحضروا والمواضع تزرع فى الوديان واشجار الزيتون والوز والتين فى المنحدرات المنخفضة، وفى مساحات اعلى تزرع الحبوب والكرام وأشجار التفاح. وكان الفلاح فى فصل الشتاء يزرع محاصيل مثل القمح والشعير والعدس، وفى فصل الصيف تنوع مزروعاته بصورة أكبر لتشمل الطماطم والشمام والسمسم .

ولأسباب صحية ومناخية وأمنية، كانت القرى تقام فوق التلال، فقد أثر العرب الحياة فى الجبال حيث يكونون فى مأمن من الملايا ومن غارات البدو، ولم ينزلوا إلى الوديان أو السهل الساحلى الا لغرس البذور وحصد المحصول. وفى القرن التاسع عشر

عندما تحسنت الأحوال الأمنية في المنطقة، بدأ سكان جبال نابلس يبنون مستعمرات في الساحل ناحية الغرب، وفي نهاية القرن أصبحت تلك المستعمرات قوى مستقرة حتى وأن احتفظ سكانها بروابط وثيقة مع قراهم الأصلية بالقرب من نابلس .

وكانت القرية عادة تتمتع بالإكتفاء الذاتي إقتصاديا واجتماعيا، مما مكنها من أن تكون مستقلة ومتميزة، فقد تولد عن صعوبة الاتصال والفوارق الحادة في البيئة سمات فردية متميزة، فيمكن لقريتين أن تعيشا متقابلتين ولايفصل بينهما سوى واد ضيق أن يتكلم سكانها لهجتين مختلفتين ويطهون وجبات مختلفة ويرتدون ملابس متباينة، وذلك نتيجة لتقاليدهم المحلية القوية وما جيلوا عليه، وقد يمكن التعرف على إحدى القرى الفلسطينية من تطريز ثوب نسائها .

أما المنازل فكانت أقل تبانيا ولم تختلف الا باختلاف المنطقة، ففي وادي الأردن وعلى إمتداد السهل الساحلي كانت المنازل تشيد من اللبن بينما كانت الأغصان والطين تستخدم في الجليل في بناء الجدران، وتغطية العوارض الممتدة عبر السطح، وفي المناطق الجبلية وفي وسط البلاد كانت الحجارة تستخدم في البناء، ولما كان الخشب نادراً في جنوب الجليل اتخذت أسقف المنازل شكل قباب من الحجارة، ومع ذلك كان طراز البناء متماثلاً، وعادة ما كان بيت الفلاح يتكون من غرفة كبيرة مقسمة إلى أجزاء مختلفة وفناء، وعندما يتزوج الأبناء ويكبر حجم الأسرة كانت تبنى غرف إضافية، وفي أيام الحصاد غالباً ما كان الفلاح يترك بيته ويعيش في الحقل في كوخ مصنوع من الأغصان .

وتدور حياة القرية حول العائلة أو العشيرة التي لعبت في ريف فلسطين دوراً حاسماً من النواحي الاجتماعية والإقتصادية؛ ففي السياسات الداخلية للقرية كانت تمارس على أساس عائلي ولاينحاز سكان القرية إلى جانب دون الآخر على أساس

طبقى أو مصلحة إقتصادية بل تبعا لموقف رئيس العائلة، وكما هو الحال فى كافة المجتمعات العربية ومجتمعات البحر المتوسط فإن العائلة يسيطر عليها الرجال، ورغم أن الأبناء يظلون بدون امتلاك أية أراضى حتى وفاة أبائهم فانهم يخلقونه فى معظم ممتلكاته، وعند زواج شقيقاتهم، أو بناتهم يحصل الرجال على كل «ثمن العروس» تقريبا وإذا كان الاختيار موفقا فانه ينتظر من الشاب أن يتزوج فتاة من اقارب ابيه وعادة ما كان يعطى حق الرفض، وأن كانت العروس من غير الاقرباء فعادة ما تجتمع من القرية .

فى مثل هذا المجتمع الذى يفتقر إلى أى نوع من التأمين، تقع مسئولية العائلة على رئيسها، وتتمدد المسئوليات وتتراوح بين رعاية علاقات الاناث غير المتزوجات فى الأسرة وتوفير العمل لأبناء العمومة وأبناء الأشقاء والشقيقات، أما دور المرأة فى هذا المجتمع فكان دور التابع وإن كان دورا هاما ومحددا، فإلى جانب رعاية البيت وتربية الأطفال كانت المرأة تقوم بنشاط زراعى بارز، فكانت تعمل فى الحقل وتجمع المحصول فضلا عما تضطلع به من إعداد الخبز وتخزين الحبوب وحفظ الفاكهة .

لقد كانت حدود القرية بالنسبة للكثيرين هى اقصى ما يسافرون اليه، وكان شيخ البلد هو السلطة الوحيدة التى يراها الكثيرون من القرويين إلى جانب فرق التجنيد العثمانية التى كانت تزور القرية من حين إلى آخر. وكان الوالى العثماني قبل عام ١٨٦٤، يعين الشيخ لحفظ النظام وجمع الضرائب فى منطقة تتكون عادة من أربع أو خمس قرى. والواقع أن هذا التعيين كان شكليا، إذ كل ما كان الوالى يفعله هو الاعتراف بقوة الرجل الأقوى فى المنطقة التى لاسيطرة حقيقية تذكر عليها للوالى نفسه، وكان الشيخ عادة هو أكبر إقطاعى فى المنطقة ورث اللقب عن أبيه أو عن أخيه الأكبر، وفى معظم الأمور كان يتصرف باستقلالية تكاد تكون كاملة عن السلطات

العثمانية، إذ كان يجمع بين الهيمنة السياسية والسلطة القضائية والعسكرية، وفي الثلاثينات من القرن التاسع عشر قوض الاحتلال المصري سلطة الشيخ، وعندما اغيدت من جديد فلسطين داخل حدود الامبراطورية اصدر العثمانيون سلسلة من القوانين الإدارية شملت الإصلاحات التنظيمية بهدف تدعيم نفوذ الحاكم في المناطق الريفية، وبموجب تلك القوانين جرد الشيوخ من سلطاتهم القضائية والعسكرية، وحلت محل الشيوخ شخصية اقل منه قوة هو مختار القرية، ومع ذلك ظلت مكانة الشيوخ الاجتماعية ارفع بكثير من مكانة المختار لدرجة إنهم استطاعوا الاحتفاظ بقدر كبير من سلطتهم حتى وقوع الاحتلال البريطاني في عام ١٩١٧ م .

لقد أنشئت وظيفة المختار في عام ١٨٦٤، ولم تكن هذه الوظيفة وراثية بعكس وظيفة الشيخ، فكان المختار مجرد موظف مكلف بعدد من الواجبات الدنيا ولا يملك أية سلطة مستقلة. وبالرغم من أنه في ظل الحكم العثماني، كان يشترط في المرشحين لهذه الوظيفة أن يجيدوا القراءة والكتابة وأن يكون لديهم بعض الأملاك، نادرا ما كان المختار أفضل المتعلمين أو أغنى أفراد القرية. وفي ظل الحكم البريطاني أسقط شرط الملكية ومنح المختار راتبا حكوميا، ومن ثم أصبح أكثر إرباطا بالسلطة مما جعله يفقد ثقة أهل القرية .

في أواخر القرن التاسع عشر، أخذت المنافسة بين الشيخ والمختار تفقد مغزاها وبدأت السلطة تنتقل من المناطق الريفية إلى العائلات الكبيرة في المدن ولاسيما العائلات الأرستقراطية العريقة في القدس، وشجع العثمانيون هذا التحول إذ كانت مراقبة الاعيان في المدن أسهل من مراقبة شيوخ الريف، بل كانوا أكثر ميلا إلى التعاون مع السلطات . ولهذا تمت ترقيتهم إلى مناصب ارفع في داخل فلسطين وفي ربوع الامبراطورية. فعمل الفلسطينيون في سوريا والعراق واصبح أحدهم واليا على

اليمن، بل أضحي عدد منهم نوابا فى البرلمان العثمانى. كذلك استمرت هيمنة عائلات المدينة على الشغون السياسية خلال فترة الإنتداب البريطانى ومن بين أعضاء اللجنة العربية العليا الاثنين والثلاثين خلال الفترة من ١٩٣٦ إلى ١٩٤٨ لم يكن من أصل ريفى سوى أربعة أعضاء .

لم تصبح القدس أبرز مدينة فى فلسطين الا فى القرن التاسع عشر حتى وأن كانت فى عام ١٨٥٨ لاتزال، وفقا لما ذكره ادوارد لير «اقلر وأبشع مكان على وجه الأرض» وقد ترجع زيادة أهمية القدس السياسية إلى القرار الإدارى العثمانى بجعل القدس تابعة مباشرة للباب العالى العثمانى بدلا من تبعيتها لولاية صيدا أو دمشق كسابق عهدها. فهذا التطور الذى رفع من مكانة القدس إلى مستوى دمشق نفسها أكد أن المدينة أرفع شأنًا من المدن الفلسطينية: يافا، ونابلس، وغزة، وهكذا ظل أعيان القدس، حتى إنهيار فلسطين، زعماء سكان البلاد، تلك الحقيقة التى كثيرا ما أثارت استياء سكان المناطق الأخرى .

وفى الخمسينات من القرن التاسع عشر وصف القنصل البريطانى الوضع فى القدس بقوله: «مما يجدر ذكره أن رابطة متماسكة من العائلات العربية، لايعترف بها القانون وإن تكن ذى نفوذ بحكم مكائتها، قد إغتصبت فيما بينها جميع وظائف البلدية. وبالرغم من وجود عائلات مسيحية عريقة مثل عائلتى القطان وعطا الله، فإن العائلات السنية الكبيرة هى التى كان لها وزن سياسى حقيقى ومن ابرزها عائلات الحسينى والخالدى والعلمى والنشاشيبي وجار الله ونسيه. ولم تكن قوة تلك العائلات تستند إلى الثروة والممتلكات (وإن وجدت عائلات مثل عائلة عبد الحديث، كانت تمتلك سبعة عشر قرية بالقرب من نابلس) بقدر استنادها على المكانة الموروثة. ولما كان المفتى ونقيب الأشراف (رئيس الأوقاف) أهم منصبتين فى الإدارة العثمانية لم يتولاها

غير واحد من العائلات الكبيرة حتى وإن كان المنصبان غير وراثيين. فمنذ القرن الثامن عشر تعاقبت عائلتي الحسينى والعليمى فى تولي المنصبين، كما كانت عائلة جبار الله تشغل منصب مفتى القدس من حين لآخر .

وظلت تلك العائلات حتى أواخر القرن التاسع عشر تعيش معاً فى المدينة القديمة، فكانت كدليل قوى على الاستمرارية التاريخية، تقطن نفس الأماكن التى عاش فيها أجدادهم وقاموا بما كانوا يقومون به من واجبات. فمنذ القرن السابع وتقوم عائلة نسييه بالوصاية على القبر المقدس (فمن أجل تجنب المنافسة بين الكنائس اوكلت تلك المهمة إلى مسلم) كما أنها تخصصت فى التعليم وفى الأعمال الحكومية اما عائلة جبار الله فكانت أسرة دينية تولت أمور الشريعة كما انصب اهتمام عائلة الخالدى، وهى الأسرة الليبرالية البارزة، على التعليم والشئون السياسية، ومن عائلة الخطيب خرج وعاز وخدام المسجد الأقصى لفترة ثمانى مائة عام .

وشهد النصف الثانى من القرن التاسع عشر تحولات سريعة فى أسلوب حياة تلك العائلات، لقد كانوا حتى ذلك الوقت يعيشون فى الأحياء القديمة داخل المدينة المسورة التى قسمت بين المناطق الإسلامية والأحياء المسيحية والأرمنية واليهودية الاصغر مساحة فما لبثوا أن بدأوا، بقيادة عائلة العليمى، يخرجون من المدينة إلى البساتين وجوانب التلال المحيطة بالقدس، وكانت المنازل التى شيدها تتألف من حجارة نابلس الخفيفة، التى يعدها بناؤو الحجر من بيت لحم، وأسطح من القرميد الأحمر ونوافذ مرتفعة على الطراز الفينيسى. وفى عام ١٨٩٩ انتقلت عائلة عطا الله مسافة ميلين ناحية الجنوب وشيدت المنازل على امتداد الطريق إلى بيت لحم، وحذت حذوها العائلات المسيحية الاخرى. اما المسلمون، امثال عائلات العليمى والسعدى وجبار الله فقد آثروا الجانب الشمالى من المدينة حيث أقاموا حى المוסرارا إلى الغرب من الطريق

إلى نابلس .

كان التعليم الغربى مشغولا عن بعض التغييرات، فلقد تركت المدارس الأمريكية والبريطانية تأثيرها، ولا شك، على أفكار تلاميذها وأخلاقهم، كما كان التغيير فى الزخرفة الداخلية هو أحد النتائج المتطورة لهذا التأثير. ولم ينته القرن التاسع عشر حتى كانت عائلة العليمى قد تخلصت من الاثاث الدمشقى الثقيل والمطعم بهرق اللؤلؤ لتحل المقاعد ذو المساند والأرائك محل المتكآت. ولقد ذكر لورنس اوليفانت فى عام ١٨٨٤، أن أحد الأعيان «شرع فى الأخذ بالعادات المتحضرة، فبدأ يتام فوق سرير بدلا من الحصر كما كان يفعل أسلافه وأضاف بأن النساء، حتى الطبقات الفقيرة، أخذن يرتدين قمصان النوم كما أن مائدة وأربعة مقاعد بدأت تضاف إلى اثاث المنزل بل تقدموا إلى حد النوم على ما يشبه الأسرة.

كان طبيعيا أن يترك هذا التغيير تأثيره على الملابس فاختفاء المتكآت كان، إلى حد بعيد، نتيجة إلى إرتداء السراويل والفراك الذى جعل من الصعب جلوس القرفصاء، وأشار ميجور كوندرا إلى أن الثورة الغربية قد بدأت فى عام ١٨٧٢، ولم يمض على ذلك عقد من الزمان حتى كان المسافرون فى بلاد الشرق يشاهدون الملابس الغربية والأفكار الغربية بل واللغات الغربية. كما زعم لورنس اوليفانت انه لم يبق من اللباس الشرقى غير الطربوش الذى احتفظ به أثرياء الفلسطينيين، وأعرب فرانسيس نبوتن، بعد ذلك بعقدين من الزمان، عن أسفه لأن حتى هذا الطربوش قد حلت القبعة محله. وبنهاية القرن أصبحت بيروت، المركز الرئيسى لتوزيع الملابس الغربية، كما أخذت الأقمشة المطبوعة والمظلات النسائية والشباب المرفوعة تنقل إلى ساحل فلسطين .

لقد كان الاقتصاد الفلسطينى يعتمد أساسا على الزراعة لافتقار البلاد إلى المواد الخام، ومن ثم لم تكن هناك فرصة لظهور طبقة كبيرة من المفاولين، وأن وجدت دائما

طائفة صغيرة من التجار تعتمد على بعض الصناعات القليلة، وبالرغم من أن الطريق البحري إلى الهند قد أضعفها في القرن الخامس عشر، إلا أنها ظلت قائمة بصورة متواضعة وكانت نابلس، طبقا لما ذكره س.ف. قولنى، أكثر المدن رخاء خلال القرن الثامن عشر معتمدة في ثروتها على القمح وزيت الزيتون وكان الصابون المصنوع من زيت الزيتون يمثل دائما الصناعة الرئيسية في فلسطين وكانت نابلس مركزا لهذه الصناعة، وأن وجدت أيضا بعض مصانع الصابون في غزة ورام الله والجليل. كما اشتهرت غزة بنسيج القطن حيث كان يوجد، وفقا لما ذكره قولنى، نحو خمسمائة نول ولا تزال مدينة الخليل مشهورة بصناعة الزجاج .

وبالإضافة إلى الزراعة كانت المناطق الداخلية في فلسطين مركزا للصناعات الصغيرة والحرف التي يقوم المسيحيون بالكثير منها، وطبقا للإحصاء السكانى الذى أجرى فى عام ١٩٣٨ كان اثنان من بين ثلاثة مسلمين يشتغلون بالزراعة، حين كان مسيحي من بين سبعة مسيحيين يعمل فى هذا المجال، فالمسيحيون المتعلمون يشتغلون بالتجارة والمهن الحرة: وكان الاطباء والمحامون والصياغ والبقالون والبناءون والحدادون مسيحيين أكثر منهم مسلمين، كما شملت بعض الحرف التقليدية الاخرى التى كان المسيحيون يزاولونها (النجارة والطحن وصناعة الخزف والديباغة، وكانت العائلات المسلمة تقبل على الأعمال الحكومية التى كان من النادر أن يقوم بها المسيحيون حتى وان كان هذا الوضع قد تغير فى ظل الانتداب البريطانى .

وفى العقدين الثالث والرابع من القرن العشرين أخذ الفلاحون يتركون الأرض بأعداد كبيرة، وذلك فى الوقت الذى اتفق فيه شراء اليهود للأراضي الزراعية الجيدة مع زيادة سكان الريف الفلسطينيين، ومن لم يستطع الهجرة التى لم تكن فرصة متاحة للكثيرين منهم بدت موانئ البحر المتوسط وكأنها توفر الفرصة الوحيدة للحياة الكريمة

وكانت يافا وحيفا هدفين رئيسيين، وبحلول عام ١٩٣٥ نشأت مدن كبيرة من الأكواخ خارج هاتين المدينتين. وأصبحت يافا ميناء هاما بعد عام ١٨٦٤ عندما زود الميناء بفنار ومكان انزال، وازدادت أهميتها فى عام ١٨٩٢ بافتتاح الخط الملاحي مع ليفربول، ومع ذلك ظل الميناء يفتقر إلى العمل بكفاءة، فقد كان مليئا بالصخور بالدرجة التى تختم معها نقل الركاب فى قوارب صغيرة إلى الشاطئ. أما ميناء حيفا فكان المنافس الوحيد بعد أن تدهور ميناء عكا، وصار قلعة مهجورة، وإبان حكم السلطان عبد الحميد (١٨٧٦ - ١٩٠٩) إزداد سكان كل من حيفا ويافا زيادة كبيرة، وتززت مكانة حيفا بفضل مشروعات التنمية إبان فترة الانتداب. وكانت غرة ثالث ميناء من حيث الأهمية. فبينما ركزت يافا على تصدير الصابون والبرتقال والسمسك كانت غرة المنفذ الرئيسى لتصدير ما كان يزرع من حبوب حول الخليل وسبع فضلا عن أنها كانت من الموردين الرئيسيين للشعير لصناعة الجهة الألمانية فى القرن التاسع عشر .

كذلك أخذت وسائل المواصلات تتحسن فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، فشبكة الطرق التى مدها الرومان فى الأصل تم توسيعها، وفى عام ١٨٦٧ افتتح الطريق الذى يربط بين القدس ويافا لتتبعه طرق فى نابلس والجليل حتى أن لورنس اوليفانت الذى يصعب إرضاءه كتب فى عام ١٨٨٥ يقول: «إننى أعتبر الطريق الممتد من القدس إلى اريحا فى الوقت الحالى آمنا كبرودواى فلا تقع به أية حوادث فى النهار» كذلك بدأوا فى انشاء خطوط السكك الحديدية، وفى عام ١٨٩١ أكمل الخط الحديدى الممتد من يافا إلى القدس، كما تم مد خطوط أخرى من حيفا فى سنوات لاحقة .

أما البدو فكانوا قبل عام ١٩٤٨، على هامش الحياة الإجتماعية والإقتصادية فى

فلسطين، ومع ذلك فهم عرب فلسطينيون «وبالرغم من أن الأوروبيين كانوا يجعلون حياة البدو على حساب العرب المستقرين (فى الصحراء وحدها يعيش العربى الحقيقى) ملاحظة يرددها السافرون الانجليز. الا ان تلك الحياة كانت أقل رومانسية مما تصورها نساء عصر الملك ادوارد، فلم يكونوا على اتصال ببقية السكان، وتباينت أساليب حياتهم، وكانوا يعيشون اما فى كهوف أو فى خيام من شعر الماعز الأسود حيث يمضون حياتهم على حافة الصحراء، أما علاقتهم بغيرهم من الفلسطينيين فكانت ضعيفة، ولم تكن كما يرى الفلاحون علاقات طيبة، فكانت قرى الفلاحين تقام فوق قمم التلال وليس فى الوديان الخصيبة لسبب رئيسى هو سهولة حماية أنفسهم من البدو المغيرين بحثا عن الطعام. وكثيرا ما اضطر الفلاحون على أن يدفعوا لاحدى القبائل أجرا لحمايتهم من القبائل الأخرى. ومن أجمل الأغاني الفلسطينية رثاء فتاة ريفية اختطفها البدو .

وعاشت جماعات صغيرة من البدو عند أطراف الأراضي المزروعة فى شمال فلسطين، ولم تتركز حياة البدو فى الجليل على الجمال (كما هو الحال فى الجنوب) بل على الأغنام والماعز وبصورة أقل على الجاموس، وكانت هذه الجماعات الشمالية تتحدث لهجة عربية خاصة وكان بعضها من أصل كردى وتوركمانى، ولكن السواد الأعظم من بدو فلسطين يتركز فى صحراء النقب الخفة بسيناء والأردن والبحر الاحمر، ويعرف هؤلاء بقبائل غزة وقدر عددهم ايان الانتداب البريطانى بما يتراوح بين ٦٠ و ٨٠ ألف نسمة. وبالرغم من وجود قبائل بدو فى صحراء النقب منذ القرن الخامس ظل حجمهم صغيرا وأهميتهم محدودة حتى وقوع هجرات جديدة أيام الغزو العثمانى لفلسطين بعد ألف سنة. وحاول الاتراك توطين البدو فى المجتمعات الزراعية لكن دون جدوى، وواصلت القبائل الرئيسية -قبيلة «التيها» بفروعها الثمانية والعشرين «والتيراين» بفروعها الخمسة والعشرين- حياة البدو حتى نشوب الحرب العالمية

الاولى، ثم حدث تغيير جذرى فى أسلوب حياتهم لانتيجة للحكم البريطانى بل نتيجة للتغييرات التقنية التى قللت من عدد البدو فى جميع انحاء العالم، فقد وجدت اعداد كبير من رجال القبائل نفسها مضطرة إلى ممارسة عمل زراعى دائم عندما انهارت دعائم الاقتصاد البدوى، فاستخدام العربة قض على اهم الانشطة البدوية وهى تربية الجمال والخيول، و اشار مفوض بئر سبع ابان الانتداب البريطانى إلى أن الجمل الذى كان يتراوح ثمنه بين عشرين وثلاثين جنيها فى عام ١٩١٤م لم يزد سعره عن ثلاثة جنيهات بعد ذلك بعشرين عاما .

## الفصل الثانى

### ظهور الشخصية القومية

تساءل ليفى اشكول، رئيس وزراء إسرائيل فى أواخر الستينات، ماهى حقيقة الفلسطينيين؟! «لم يكن سؤالاً بريئاً صادراً عن عقل يبحث عن الحقيقة، ولم يكن اشكول ينتظر فى لهفة رداً، لأن السؤال كان قد طرحه من قبل مراراً الزعماء الإسرائيليون فى محاولة منهم لرفض مطالب الشعب الفلسطينى. ولما أراد انشتين معرفة ما سوف يحدث للعرب إذا ما نجحت المخططات الصهيونية، أجاب وايزمان فى سخرية: أى عرب؟ ليست لهم أهمية تذكر». أن الموقف الصهيونى الدائم هو: ليس للفلسطينيين أهمية وفى سبيل اقناع غيرهم بهذا الموقف تعين على جولدا مائير ورفاقها ان يزعموا بأنه لاوجود للفلسطينيين فى واقع الأمر، وحتى لو ارغم الإسرائيليون على الاعتراف بوجود الفلسطينيين كبشر، فانهم لايعترفون بهم كفلسطينيين بل كعرب، هذا هو السبب الذى حمل ابا ايان فى سيرته الذاتية على أن يضع كلمة الفلسطينيين بين الاقواس ويصر الصهاينة على أن الفلسطينيين لايشكلون امة وانه لا يمكن فصلهم عن عرب الهلال الخصيب، كما يعلنون أن فلسطين كيان اصطناعى خلقه البريطانيون الذين «ابتدعوا» الفلسطينيين فى عام ١٩٢٥ عند اعادة تسمية سكان الامبراطورية العثمانية القديمة، ويردد الصهاينة بأن لفظ «سوريا» كان حتى الحرب العالمية الاولى، يشمل المناطق المعروفة الآن باسم لبنان والأردن وفلسطين، ويشيرون إلى أن معاهدة لندن فى عام ١٨٤٠ تشير إلى منطقة عكا (فى شمال فلسطين) بجنوب سوريا .

ويقيم الصهاينة مزاعمهم على أساس ما كان قائماً فى سنوات انهيار الامبراطورية العثمانية حين كان أحد الأسس الهامة فى السياسة التركية هى عدم تشجيع الولاءات الإقليمية، لقد كان تفكك الامبراطورية العثمانية على المدى البعيد

حتميا لأن الدول الغربية لم تستطع كبح جماح أطماع كل منها الأخرى فى دول البلقان والشرق الاوسط، لكن السياسة الحكيمة التى انتهجها السلطان عبد الحميد فى المناطق الغربية الخاضعة له إبطأت عملية التفكك، وفى محاولة منه لتأكيد تطابق المصالح بين الأتراك والعرب أقام المساجد والمدارس فى جميع أنحاء سوريا والشرق، وأمر بإنشاء خط الحجاز الحديدى، وفى عام ١٨٨٧، انتخب المجلس النيابى الذى سرعان ما أغفل، ثم انتخب آخر فى عام ١٩٠٨ وثالث فى عام ١٩١٢ بعد خلع السلطان، وجاء النواب من جميع أنحاء الامبراطورية، نصفهم من الأتراك والربع تقريبا من العرب والبقية من الألبانيين واليونانيين والأرمن وعن طريق اظهار أنفسهم بمظهر حكام الامبراطورية المتعددة الجنسيات الذين يمنحون السيادة السياسية وحق التمثيل النيابى للأقليات الخاضعة لهم، استطاع عبد الحميد وخلفاؤه من تمديد عمر حكوماتهم بالرغم من أن فساد العثمانيون ومطالبهم الخاصة بالتجنيد ونظامهم الضرائبى أثار قدرا من الاستياء فى فلسطين، فإن الأتراك لم يواجهوا كراهية شعبية حتى نشوب الحرب لعالمية الاولى، ولاغربة فى أن الكثيرين من الفلسطينيين الطاعنين فى السن ينظرون لى العهد العثمانى بحنين وخاصة فى ضوء ما مروا به فى عهود لاحقة. ويذكر موسى العليمى، وهو من أبرز الشخصيات الفلسطينية فى جيله، أن العرب كانوا يعتبرون لأتراك شركاء وليسوا قاهرين. وكانت الحاميات العثمانية صغيرة والمعارضة الشديدة اادرة، وفوق هذا كله كان يحكم فلسطين إلى حد كبير مسئولون فلسطينيون ويزعم موسى العليمى «ان درجة الحرية والحكم الذاتى فى فلسطين كانت أعظم منها فى كثير من الاقليم التركية»<sup>(١)</sup>.

أما حركة القومية العربية، التى قضت بالاشتراك مع الجيش البريطانى على لامبراطورية العثمانية فكانت فى بدايتها قوة ثقافية وإن كان هناك أى محتوى سياسى ى الشعور العربى القومى فى نهاية القرن التاسع عشر، فكان مرجعها ضد التدخل

الغربي في العالم العربي وليس ضد الأتراك. وفي غضون العقد التاسع من القرن التاسع عشر قدم القنصل البريطاني في القدس تقريرا حول الشعور القومي المعادى لبريطانيا اثناء الحملات ضد «عراي في مصر والمهدى في السودان»، ومن ذلك لم تكن ثمة قلاقل سياسية تذكر ضد العثمانيين .

كانت القومية العربية، التي بدأت كحركة فكرية، تعمل على نشر الوعي العربي عن طريق احياء الثقافة العربية وخاصة اللغة العربية، وجمع المفكرين في جمعيات مثل الجمعية العلمية السورية وجمعية الفنون والعلوم، وعلى الرغم من أن تلك الجمعيات أدت إلى قيام المزيد من المنظمات السياسية انحصرت المعارضة للامبراطورية العثمانية حتى نشوب الحرب العالمية الاولى في الدوائر الفكرية .

وكان عدد الفلسطينيين الأعضاء في جمعيات تهدف إلى الاطاحة بالأتراك قبل عام ١٩١٤ يعد بالعشرات، ويتذكر احمد طوفان وهو فلسطيني من نابلس، وأصبح وزيرا لخارجية الأردن، العثمانيين بوضوح تام ويذكر انه لم تكن هناك أية حركة شعبية ضد الأتراك حتى بعد نشوب الحرب، ويعتقد انه لولا الاجراءات القمعية التي اتخذها الحاكم التركي ضد قادة الحركة الوطنية لما شهدت سوريا وفلسطين انتفاضة عربية، وحتى بعد إعدام عدد كبير من القوميين في بيروت ودمشق أحجم الكثيرون من الفلسطينيين وخاصة من القدس عن تغيير ولائهم وبعد أن فرضت بريطانيا وفرنسا سيطرتهما على الشرق الاوسط في أوائل العشرينات، طالبت جماعة كبيرة من الفلسطينيين، من بينهم أعضاء من معظم الأسر الكبيرة في القدس بعودة الحكم التركي .

ولما بددت الحرب الأمل في عودة الأتراك عاد الفلسطينيون للقومية العربية، وادراكا منهم بالخطر الذي يتهددهم من جانب القوى الغربية ولاسيما من الحركة

لصهيونية التي ربطت بريطانيا نفسها بها، طالبوا باستقلال العرب وبالوحدة مع سوريا، وفي تقرير للجنة الأمريكية التي بعث بها الرئيس ويلسون إلى الشرق الاوسط جاء: «أن العرب من مسلمين ومسيحيين يرغبون في الاحتفاظ بوحدة بلادهم مع سوريا فهم يعتبرون فلسطين من الناحيتين التاريخية والجغرافية جزء منها .

وبينما كان الفلسطينيون ينتظرون أن تفي بريطانيا بوعداتها التي قطعتها لشريف مكة ابان الحرب، فانهم كانوا يتطلعون إلى الارتباط بالدولة العربية الموعودة، وعندما بات واضحا أن الشرق الاوسط سوف يقسم وأن فرنسا سوف تستولى على سوريا بأى حال، شرع الفلسطينيون يركزون نضالهم ضد بريطانيا والصهيونية، ولم يكن هناك حتى عام ١٩٢٠ شعور شعبى ازاء مصير فلسطين، فلم يكن الشعب الفلسطينى يعتبر نفسه منفصلا عن بقية العرب، اما اولئك الذين كانوا يعيشون فى سنجق القدس ويعتبرون القدس عاصمة لهم، ربما كان لديهم شعور بالكيان أو بالشخصية الثقافية والاقتصادية المستقلة إلى جانب الانتماء السياسى لاسطنبول، ومع ذلك كانت هناك روابط ربطت الفلسطينيين دوما وجعلت منهم كيانا متميزا إلى حد ما عن جيرانهم .

لقد وجد إسم فلسطين على سبيل المثال بصور متباينة منذ عهد الاغريق وكلمة (PALAESTINE) اليونانية اصبحت PALAESTINE فى اللاتينية ثم فلسطين فى العربية، فمبر كل هذه العصور وحتى الحقبة العثمانية كانت فلسطين وحدة ادارية مقسمة إلى مناطق اصغر، وفى ظل الهيمنة التركية ابقى على السنجقيات منفصلة بوجه عام حتى وان اصبحت مناطق نابلس وغزة لفترة وجيزة فى العقد السادس من القرن التاسع عشر جزء من سنجق القدس. وأسهمت عوامل اخرى فى بروز الشخصية الفلسطينية مثل الاحتفالات الدينية فى النبی موسى التي كان يحضرها المسلمون من كافة أنحاء فلسطين والسلطة القضائية للجماعات المسيحية التي وضعت فى اعتبارها الحدود

التاريخية لفلسطين، هذا بالإضافة إلى جعل القدس في عام ١٩١٠ مركزاً قانونياً بوجود محكمة الاستئناف الخاصة بها وتأسيس صحيفة فلسطين في يافا بعد ذلك بعام واحد. وزيادة على ذلك فإن أوروبا وأمريكا كانتا تعتبران فلسطين وسكانها بوجه عام كياناً متميزاً عن جيرانه. وفي عام ١٨١٥، نشر ماكسيم ويكامب، رفيق فولبريت في السفر، كتاب صدر تحت عنوان «مصر والنوبة وفلسطين وسوريا» وفي عام ١٨٧٦ صدر دليل بعنوان «فلسطين وسوريا» وفي وقت لاحق أثناء المراسلات الشهيرة بين تيودور هرتزل والسلطان عبد الحميد، أشار الرجلان بنوع الخصوص إلى فلسطين، ولم يكن لدى أى منهما، فيما يبدو، شك عما يتحدثان .

وكان واضحاً عندما بدأت أوروبا في تصفية الامبراطورية العثمانية بعد الحرب العالمية الأولى، انها تعتبر فلسطين كياناً متميزاً من حقه أن ينال الاستقلال في نهاية المطاف، وفي عام ١٩٢٢ منحت عصبة الأمم بريطانيا حق الانتداب على فلسطين، وكما جاء في المادة ٢٢ من ميثاق عصبة الأمم، فإن الانتداب يستند إلى مبدأ حق تقرير المصير والاعتراف المؤقت بالشعب الفلسطيني كأمة مستقلة، «أن بعض المجتمعات التي كانت تنتمي سابقاً للامبراطورية التركية (أى سوريا والعراق ولبنان وشرق الاردن وفلسطين) قد بلغت مرحلة من التنمية يمكن من الاعتراف المؤقت بوجودها كأمة مستقلة في حاجة إلى المشورة الادارية ومساعدة دولة انتداب حتى يأتى الوقت الذي تتمكن فيه من الوقوف بمفردها .

والقومية بين الفلسطينيين لم تبرز، شأنها شأن شعوب أخرى، الا بوجود تهديد خارجي. فالحركة الصهيونية التي نشطت في فلسطين ابان السنوات الأخيرة للامبراطورية العثمانية كانت، تمثل بلاشك، هذا التهديد، ومن ثم كانت مسعولة جزئياً عن نمو القومية الفلسطينية، ففي بداية هذا القرن إتسع نطاق المعارضة للصهيونية

مع تطور الاحتكاك بين الفلاحين الفلسطينيين والمستعمرين الصهاينة الذين كانت تمويلهم اسرتى روتشيلد والبارون دى هرسنش، وازداد هذا الاحتكاك بزيادة الهجرة اليهودية، وبالرغم من أن جماعة اليهود الشرقيين الصغيرة فى فلسطين كانت دائما على علاقات طيبة مع العرب، فإن المهاجرين الجدد كانوا من يهود اوروا الذين لم يحاولوا قط الاندماج فى المجتمع القائم، فرفضوا تعلم اللغة العربية، وقاطعوا، كمبدأ، المجال التجارية العربية والعمال العرب، فكان الصهاينة يهدفون إلى اقامة مجتمعهم الخاص، ولم يكن يعنهم غير هذا الهدف واعرب مراسل الصحيفة الصهيونية الرئيسية فى فلسطين «هاعولام» عن اسفه فى وقت مبكر فى عام ١٩١١ حين قال: لقد نسينا تماما ان هناك عربا فى فلسطين ولم نكتشف وجودهم الا فى السنوات الاخيرة.. ولم نعرفهم أى اهتمام، بل ولم نحاول قط ان نختر من بينهم اصدقاء .

لقد أصبحت الصهيونية بالنسبة للعرب قضية سياسية، قبل الحرب العالمية الاولى بوقت قصير، فقد ناقشها البرلمان العثماني، وطرحته فى الصحافة، كما ان تأثيرها على الرأى العام العربى جعلها قضية انتخابية فى عام ١٩١٤ حين تعهد راغب النشاشيبي أحد المرشحين الفائزين فى القدس قائلا: لو اننى انتخبت نائبا لبذلت قصارى جهدى وعملت ليل نهار من أجل القضاء على الخطر الذى يترصد بنا من جانب الصهيونية والصهاينة، وخلال السنوات الاخيرة للامبراطورية ساد بين العرب الوعى بخطر الصهيونية وأدراك مطعمها النهائي.. وذكر احد القوميين الفلسطينيين فى يومياته «لولا سعى الحركة الصهيونية لبناء وجودها على أنقاض شعب آخر، لما مقتها» .

هكذا أصبحت اعداد متزايدة من الفلسطينيين واعية بالخطر الصهيونى، وفى العقد الثالث من القرن التاسع عشر، بات المخطط الصهيونى واضحا بجلاء للسواد الاعظم من الناس بالرغم مما قام به وايزمان ورفاقه من محاولات اخفاء اهدافهم، وعلى

أية حال كانت هذه الاهداف مسجلة ويمكن لمن اهتم بها الاطلاع عليها. ففي مؤتمر بال عام ١٨٩٧ زعم هرتزل أنه أسس الدولة اليهودية حتى وإن حاول واحد من خلفائه «أن يجد اسلوبا غامضا للتعبير عما نريد بشرط ان يكون بطريقة تساعد على تجنب إثارة الاتراك الذين يسيطرون على الارض التي نشتهيها». وفي وقت صدور اعلان بلفور، عندما كان الزعماء الصهاينة لا يتحدثون جهارا الا عن الوطن القومي، كانوا يرسمون بشكل سافر حدود دولتهم المستقبلية، فكتب صهيوني امريكي بارز في عام ١٩١٩ «أن دولة فلسطين اليهودية حقيقة واننا نقوم الآن بتحديد حدود الدولة».

وأعلن إسرائيل زانجويل، احد انبياء الصهيونية، في نفس العام «لا بد من ان يمتلك اليهود فلسطين، كما يمتلك العرب شبه الجزيرة العربية، او يمتلك البولنديون بولندا».

وبالرغم من كلماته المعسولة لوزارة الخارجية البريطانية، فإن وايزمان نفسه لم يستطع الادعاء إلى اجل غير مسمى أن كل ما يهدف اليه هو اقامة وطن قومي بدون أى مغزى سياسى، ففي برقية بعث بها إلى زميل في بداية عام ١٩١٩ أعرب وايزمان عن أمله في أن تتشكل الادارة الفلسطينية بأكملها على النحو الذى يجعل فلسطين كومنولث يهودى تحت الوصاية البريطانية «وسؤ الحظ رأى لورد كرزون البرقية وتساءل» ما معنى كومنولث؟ لقد بحثت فى معاجمى فوجدت انها تعنى «دولة» و«جهاز سياسى» و «جماعة مستقلة» و«جمهورية».... إذا ما فائدة أن نغلق اعيننا عن حقيقة أن هذا هو ما يهدف اليه الصهاينة وان الوصاية البريطانية ليست سوى ستار يخفون وراءه لتحقيق هذه الغاية؟ وتصبح المسألة اشد سوءا عندما يقول وايزمان لصديقه شيئا ويعلن للرأى العام شيئا آخر».

وفى نفس اليوم كتب كرزون إلى بلفور يقول «اننى على يقين تام من ان

وايزمان يقول شيئا لك او بينما انت تقصد شيئا معنا بالوطن القومى فانه يهدف إلى تحقيق شئ مغاير تماما، فهو يتطلع إلى إقامة درل «يهودية وامه يهودية وسكان تابعين من الغرب يخضعون لحكم اليهود، والى يهود يمتلكون اجرد الاراضى ويتولون الادارة».

كان هذا استنتاجا شاركه فيه سياسيون ومسؤولون آخرون، فالجنرال سير لويس بولز، كبير الاداريين فى بداية الانتداب، شكى من «انه يستحيل ارضاء الانصار الذين لايطالبون بأكثر من وطن قومى، لكنهم فى الحقيقة لايرضون بأقل من دولة يهودية وبكل ما تتطوى عليه سياسيا».

إذا كان هذا هو هدف الصهانية فما هو الدور الذى تصوره لسكان البلاد من الفلسطينيين؟ ومرة اخرى نقول انه بمجرد ازاحة قناع الخداع تبدو الاجابة على السؤال واضحة. حدث مرة ان اخير وايزمان، فى لحظة فقد فيها سيطرته على عواطفه، جمهور من الانجليز ان الصهانية «سوف يقيمون فى فلسطين نوع المجتمع الذى يجعلها يهودية بقدر ما انجلترا الانجليزية وأمريكا أمريكية» فما تأثير هذا على الفلسطينيين؟ لقد قدم هرتزل الجواب على هذا السؤال قبل ذلك بعشرين عاما أو يزيد حين قال: سوف يصادر الصهانية فى هدوء الممتلكات العربية وسوف يعملون على تشجيع السكان الفقراء على عبور الحدود بتوفير عمل لهم فى الدول التى يعبرون إليها مع حرمانهم من أى عمل فى بلادنا .

وكان حمل السكان على ترك البلاد أو طردهم عبر الحدود يحتل مكان الصدارة فى جدول أعمال وايزمان، ففى عام ١٩٣١، أوضح للمندوب السامى فى القدس أنه يرغب فى توطين الفلسطينيين فى شرق الأردن. وبعد ذلك بسبع سنوات أوصت لجنة بيل بتسليم الجليل بغالبيتته العربية إلى الدولة اليهودية، ابلغ وايزمان سكرتير

الاستيطان أنه على إستعداد أن يعاون بريطانيا في نقل العرب من الجليل عبر نهر الأردن .

بل كان بعض الصهاينة أكثر صراحة فيما بينهم على الأقل، فكتب جوزيف فيتز المكلف بمهام توطین اليهود في عام ١٩٤٠، يقول:

ينبغي أن يكون واضحاً فيما بيننا أنه لا مجال للشعبين ان يعيشا معا في هذه البلاد... وسوف لا نستطيع تحقيق هدفنا كدولة مستقلة مع وجود العرب في هذه البلاد الصغيرة، والحل الوحيد هو قيام فلسطين على الأقل فلسطين الغربية (غرب نهر الاردن) بدون عرب.. وليس هناك من طريقة سوى نقل العرب من هنا إلى الدول المجاورة، نقل العرب جميعهم، دون ترك قرية واحدة أو قبيلة واحدة .

وأكد صهيوني بريطاني، رائد بحري، ج.م كنورثي، عضو البرلمان هذه السياسة؛ ففي مناقشة أجراها المعهد الملكي للشئون الدولية في شهر يناير عام ١٩٣١، دعت إلى توسع يهودي أكبر، وتساءل: «لماذا لا يسمح لليهود بالاستيطان في شرق الأردن، وهي منطقة خصبة مختلطة السكان يجب السماح باستيطانها كما استوطن الأمريكيون الأرض الواقعة غرب بنو إنجلترا؟ وإذا واجهوا أى عدوان فانه بوسعهم الدفاع عن الهنود الحمر. ولا حاجة بنا الى القول بأن اهتمام كنورثي بمصير العرب الفلسطينيين قدر اهتمامه بمصير قبائل الهنود الحمر.

وبينما لم يدرك الفلسطينيون إلى حد كبير تعقيدات الدبلوماسية الصهيونية في الغرب، كان هناك ما يمكنهم من الامام بما يجرى من الأدلة الكافية الدامغة، هذا فضلا عن أن القليلين من الصهاينة حاولوا إخفاء نواياهم، فهناك فقرة واسعة الانتشار كتبها سير ألفريد مونت (لورد ملشات في وقت لاحق) يقول: «ان اليوم الذى سوف يعاد فيه بناء الهيكل (هيكل سليمان) في مكان المسجد الأقصى .

وحيث أن المسجد هو اقدس مكان اسلامى خارج شبه الجزيرة العربية، استبد القلق بالفلسطينيين، ولديهم ما يبرر قلقهم ازاء مصير أماكنهم المقدسة، ولقد زدوا طيلة فترة الإنتداب بمؤشرات عن المخطط الصهيونى فى طبعة ١٩٢٦، لدائرة المعارف البريطانية جاء أن «اليهود يتطلعون إلى نداء إسرائيل.. واسترداد الدولة اليهودية». وفى طبعة سابقة (١٩١٩)، اوردت العلم الوطنى اليهودى على انه علم دولة فلسطين وعندما طلب تفسير لذلك اعترف المحرر بأن «استنتاجه كان سابقا لأوانه إلى حد ما». وفى عام ١٩٤٥، كادت أن تقوم المظاهرات فى مدرسة «فرنلزاندي بويز» فى رام الله عندما أهدى القنصل الأمريكانى إلى مكتبة المدرسة نسخة من دائرة معارف كومبتون التى اعتبرت نجمة داود هى العلم الفلسطينى .

أما أكثر المظاهر مدعاة للحيرة من وجهة النظر الفلسطينية فكانت الطريقة التى تمكن بها الصهاينة من تحقيق استقلالهم عن الحكومة وعن المجتمع الاصلى. فحتى فى ظل العثمانيين سجل الصهاينة مكاسب عديدة فقد بدأوا فى انشاء مدارسهم الخاصة واقاموا مصرفهم الخاص ومحاكمهم المدنية الخاصة، وما أن وضعت الحرب اوزارها حتى أسسوا حركة الكيبوتز، وانشأوا الجامعة العبرية واتحاد العمال العبرانيين، وبحلول عام ١٩٢٠، كان الصهاينة قد وضعوا اطارا لمجتمع منفلق على نفسه مما اثار غضب العرب وخيب آمالهم، لقد عدد سير لويس بولز اسباب استياء العرب فى رسالة بعث فى عام ١٩٢٠ قال: «أن ادخال اللغة العبرية كلغة رسمية، واقامة نظام قضائى يهودى وتكوين اللجنة الصهيونية التى كان العرب على بينة منها وامتيازات السفر الخاصة التى كان يتمتع بها اعضاء اللجنة الصهيونية الأمر الذى اقتنع بشكل حاسم وقاطع العناصر غير اليهودية (أى العرب) بتحيزنا، وفى نفس الوقت ذكرت لجنة استطلاع بريطانية أوكل اليها مهمة التحقيق فى اضطرابات يافا التى وقعت فى العام السابق «أن السبب الرئيسى لاعمال الشغب فى يافا وما تبع ذلك من اعمال العنف







الجنيهات وانطلقت فى غبطة إلى بيروت، وقد سويت بالارض احدى وعشرون قرية عربية وطرد سكانها البالغ عددهم ثمانية آلاف نسمة، ومع زيادة أوامر الطرد خلال السنوات التالية استخدمت الشرطة البريطانية للقيام بطرد القرويين من ديارهم، ولم يحدث قط أن أتيحت لهم الفرصة للبقاء كمستأجرين من الملاك الجدد، اذ حالت المنظمات الصهيونية دون ذلك بصورة سافرة، فعلى سبيل المثال أعلن «دستور الوكالة اليهودية» أن تشغيل العمال اليهود فى (أمالك الوكالة) سوف يعتبر مسألة مبدأ. وكان الصندوق القومى اليهودى يؤجر الأراضى شريطة ألا يزرعها غير العمال اليهود وأصر «صندوق تأسيس فلسطين» على ألا يستأجر مستوطنهم غير العمال اليهود «وحتى فى الأعمال اليهودية الخاصة كان العمال العرب عادة يقاطعون. وفى مارس من عام ١٩٤٩ أعلنت «جوش فرونتير» أن البطالة بين اليهود قد انخفضت إلى حد كبير فى اواخر عام ١٩٣٨م، نتيجة لأنهم حلوا محل العرب فى المزارع وإجراءات الأمن المتزايدة والأشغال العامة... ولأول مرة هذا العام يستخدم عمال يهود فى بساتين البرتقال التى يمتلكها اليهود وكان المؤرخ ارنولد توينبى قد تنبأ بهذا قبل ذلك بسنين عديدة حين ذكر أمام جمهور فى المعهد الملكى للشئون الدولية عام ١٩٣١ «أن كل الأراضى الفلسطينية التى تم شراؤها بأموال يهودية بدأت تصبح وقفا على اليهود» ومضى يقول «ولا يمكن ما يعنيه ذلك خافيا عليكم، أنه يعنى مايسمى فى جنوب افريقيا بالترقة العنصرية» .

راح الفلاحون المطردون، طيلة العقد الرابع من القرن العشرين يتجهون صوب الساحل بحثا عن عمل، فاستقروا فى أحياء من أكواخ الصفيح على مشارف يافا وحييفا، وفى الفترات القصيرة لازدهار أعمال البناء كانوا يجدون عملا بينما يظلون بقية الوقت عاطلين. وعندما رفضت الشركات اليهودية تشغيلهم قلت أمامهم فرص العمل. وفى عام ١٩٢٧ م، نشبت أعمال الشغب فى بتاح تكواه عندما منع العمال



الاشكنازية على الرغم من أنهم يعيشون في مدينة السواد الأعظم من سكانها من المسلمين أن قلة من الصهاينة هي التي أبدت إستعدادا لاتخاذ موقف وسط، والاندماج في المجتمع الفلسطيني القائم، وسجل «سترنج» واقعتين لرفض المستوطنين الصهاينة تعليق لافتتين لإدارة البريد الفلسطينية لا لسبب إلا لأنها كتبت بالعربية إلى جانب الانجليزية والعبرية .

لقد لخص سيرجون تشانسيلور هذا الموقف في رسالة بعث بها إلى سكرتير الملك الخاص في مايو من عام ١٩٣٠م، بقوله: «أن مايجعل التعامل معهم (الصهاينة) صعبا هو أنهم لا يعيرون أى اهتمام بحقوق الآخرين ومشاعرهم، كما أنهم شديدو الالحاح والضغط من أجل تحقيق مطالبهم وعلى الرغم من أن اليهود أقلية في فلسطين فإن موقفهم من العرب يتسم بالتعالي والنفوسة، وهو موقف يستاء منه العرب بشدة لما جبلوا عليه من تقاليد الجاملة والأخلاق الطيبة.

كانت هذه النفوسة وعدم الاختلاط بمن يحسبونهم أقل منهم منزلة هي التي -فوق كل شيء آخر- أقنعت الفلسطينيين بأن الصهاينة هم الأعداء. ولقد وصف فريا ستارك هذا الموقف بجلاء إبان الحرب العالمية الثانية حين قال :

«أن هذا الشعور بالنفوس وعدم الرغبة في الاختلاط يحس به المرء في جميع مجالات النشاط الصهيوني في فلسطين، أنه يفسد جو المستوطنات الزراعية حيث يحظر على العمال العرب العمل فيها، ويفسد الفنادق حيث لا يوافق على عمل العرب حتى في غسل الملابس أو في الحدايق، كما أنك تشعر بالضيق إذا كنت لا تحب النبيذ ليهودي وتطلب نيذا كاثوليكيًا وتعذر حصولك عليه» .



وإلى جانب الحجج التاريخية والحقوق المستمرة من ملكيتهم الفعلية للأرض فإن العرب يدفعون بأن بريطانيا وعدتهم بفلسطين في عام ١٩١٥ مقابل مساعدتهم لها ضد الأتراك، وإن ماجرى بين شريف مكة (الشريف حسن) وسير هنرى ماكماهون، بصفته نائبا عن الحكومة البريطانية، كان موضع تحليل وبحث مفصل خلال الستين سنة الماضية، وليس ثمة جدوى من وراء تكرار حجج الجانبين. لكن من المعروف جيدا أن ماكماهون، في رسالته بتاريخ ٢٤ أكتوبر ١٩١٥، قد وعد بأن «بريطانيا العظمى مستعدة لأن تعترف وتؤيد استقلال العرب في جميع المناطق الواقعة داخل نطاق الحدود التي طالب بها شريف مكة» مع بعض تعديلات معينة. وأشارت التعديلات إلى الأراضي الواقعة إلى الغرب من مناطق دمشق وخمص وحط وحلب، وحيث أنه لا يوجد أى جزء من فلسطين إلى الغرب من هذه المناطق وإن ماكماهون لم يذكر أو يجادل الشريف حسين حول المطالبة بالمنطقة، اعتقد العرب أن المنطقة التي تعهدت بها بريطانيا بحكومة عربية مستقلة فيها لا بد من أنها تشمل فلسطين .

وهذا الرأي يدعمه أحد محاضر اجتماع لوزارة الخارجية البريطانية في عام ١٩١٨ حيث جاء «أن فلسطين قد شملتها ضمننا المطالب الاصلية للملك حسين ولم تستبعد صراحة رسالة سير هـ. ماكماهون بتاريخ ١٠/١٠/١٩١٥، ومن ثم لم يفترض أننا بموجب هذه الرسالة قد تعهدنا للشريف حسين بأن فلسطين سوف تكون عربية ومستقلة» .

ظل العرب طيلة فترة الانتداب يدفعون بأن بريطانيا في عام ١٩١٥ وعدتهم بفلسطين، وبالتالي رفضوا الاعتراف بوعدها بقطع أثر بلفور وزير خارجية بريطانية في رسالة بعث بها إلى اللورد روثيلد بعد ذلك بعامين، واعتقدوا، وهم في ذلك على حق، بأن إقامة وطن قومي يهودي كما تصوره بلفور إنما يتعارض مع هدفهم في أن









زيادة مهولة في الهجرة اليهودية إلى فلسطين، ففي عام ١٩٣٤، دخل البلاد أكثر من ٤٥ ألف يهودي، وازداد هذا الرقم حتى بلغ ٦٦ ألفا بعد ذلك بعام واحد، وعادت الصهيونية تشكل خطرا يتهدد الفلسطينيين واشتد الضغط على صغار الملاك والمزارعين لبيع أراضيهم وأخذت تتكرر عملية الطرد من الارض هذا فضلا عن أنه تندر على الفلاحين المطرودين أن يجدوا عملا في مدن السهل الساحلي لأن النشاط الاقتصادي اليهودي أصر على تشغيل العمال اليهود فقط .

وحيث أن البريطانيين لم يتخذوا أية خطوة للحد من عدد المهاجرين لجأ الفلسطينيون إلى صوّر أكثر ايجابية من الاحتجاج، ففي خريف عام ١٩٣٣، وقعت مظاهرات ضخمة في القدس ويافا قتل رجال الشرطة أثناءها عددا من العرب، وذكر سير آرثر ووتشوب، العندوب السامي، أن «شعورا وطنيا حقيقيا في فلسطين يزداد قوة ومرارة ضد الحكومة البريطانية والسبب في ذلك، حسب فهمه. هو أن الفلسطينيين أخذوا يدون أكثر تطرفا في مطالبهم حيث أنهم أصبحوا أكثر يأسا ازاء خطر الصهيونية، ولم يكن هذا الشعور قاصرا على الزعامة التقليدية بل شاركته فيه غالبية قطاعات الشعب، والواقع أن عرب قفلسطين قد بدأوا في منتصف الثلاثينات من القرن العشرين يظهرون ما يدل بجلاء على خيبة أملهم في زعامة عائلات القدس المتطاحنة وفشلها في تحقيق أية مكاسب في النضال ضد بريطانيا والصهيونية .

وفي بعض الاحيان بدت المنافسة بين الحسيني والنشاشيبي وكأنها تظفى على ما عداها من قضايا أخرى، واستغلت العائلتان وإتباعهما معظم الانتخابات في تشويه كل منهم الآخر، وذلك بتوجيه الاتهام ببيع الاراضى لليهود والتعاون مع السلطات البريطانية. ولما كان حق الانتخاب في المدن الفلسطينية قاصرا على الرجال من ذوى الأملاك فإن فريق النشاشيبي في معظم تلك الانتخابات، لكن في عام ١٩٣٤م تخلت

عائلة الخالدي، وهى من أبرز العائلات فى القدس، عن فريق النشاشيبي، مما أدى إلى هزيمة راغب النشاشيبي الذى كان مرشحا عمدة للقدس، وكان هذا مؤشرا لأفول نجم المعارضة، فالمعتدلون العرب الذين ازدهروا قبل أن يعطى ظهور هتلر فى ألمانيا للحركة الصهيونية دفعة قوية، اضطروا إلى افساح المجال لغيرهم أن ثبت عدم جدوى سياسة التعاون التى كثيرا ما تبجحوا بها. وهكذا استطاع فريق الحسينى بموقفه السياسى لأكثر تشددا أن يسيطر على منافسه. بيد أن أساليب المفتى الاستبدادية وعدم الأخذ بمشورة أحد حولت الكثيرين ضده وساعدت فى تشكيل أحزاب سياسية جديدة عديدة، وسرعان ما أظهرت تلك الاحزاب، باستثناء حزب الاستقلال، أنها مجرد أدوات لدعم احدى الشخصيات البارزة وعائلته، ومن ثم لم تتمتع بتأييد شعبى يذكره وعندما بدأ الكفاح الفلسطينى يقرى خلال الفترة ما بين ١٩٣٥ و ١٩٣٦، انضحت عدم كفاءة الزعامة التقليدية. وعلى الرغم من أن المفتى كان يقوم بشئ من التوجيه لكنه لم يكن نوع التوجيه الذى أراداه الشعب. لقد عقد واتشوب مقارنة بينه وبين صلابة القرويين وعنادهم فى معارضتهم لبريطانيا وبين ضعف الشخصيات العربية البارزة وافتقارها إلى سمات الزعامة .

فالثورة الفلسطينية التى تحولت من سلسلة من الأحداث الصغيرة فى عامى ١٩٣٥ و ١٩٣٦، إلى مجابهة عسكرية خطيرة فى عامى ١٩٣٧ و ١٩٣٨، لم يبدأها الزعماء العرب، لكنها كانت حربا شعبية حقيقية حاول زعماء القدس اللحاق بها وليس توجيهها؛ وجاء فى تقرير حول اجتماع عقد مع المندوب السامى فى شهر مايو من عام ١٩٣٦ أن «راغب النشاشيبي صرح بأن التوتر فى البلاد شديدا وان موقف الزعماء قد أملاه ضغط الشعب عليهم فالشعب حاليا هو الذى يحكم الزعماء وليس الزعماء هم الذين يحكمون الشعب» وعلى الرغم من أن فريق الحسينى الاتفاق مع الثورة والمشاركة فيها بصورة مباشرة منى فريق النشاشيبي بالفشل وانسحب من حلبة





اللجنة الملكية في يوليو ١٩٣٧ بضرورة تقسيم فلسطين، على أن يسلم الجليل بغالبيته العربية للدولة اليهودية المقترحة وتظل القدس وبيت لحم ومصر إلى البحر تحت الانتداب، أما بقية فلسطين فتوحد مع شرق الاردن تحت حكم الامير عبد الله. ولم تبد استعدادا لقبول ضياع مدن عربية تاريخية مثل عكا وصفد غير قلة من الفلسطينيين، ودفعت تلك المقترحات عائلة الحسيني وانصارها إلى الانضمام الكامل للثورة، في حين أن غالبية جماعة النشاشيبي ممن كانوا مرتبطين ارتباطا وثيقا بالامير عبد الله أبدت المشروع اذ بدا لهم أنه أفضل وسيلة للاطاحة بالمفتي ولتمكينهم من الهيمنة على الشؤون السياسية الفلسطينية- الشرق أردنية. وهكذا انسحبوا من اللجنة العربية العليا التي كانت قد شكلت في بداية الثورة لتكون بمثابة قناع لوحدة القيادة الفلسطينية وأعلنوا أنهم ينوون التعاون مع بريطانيا، ورد الشوار، الذين كانوا يحظون بمساندة المفتي بل أنه أصبح إلى حد ما زعيمهم، بارهاب عائلة النشاشيبي وحلفائها، وخلال العامين التاليين اغتيل الكثيرون ممن اتهموا بتأييد التقسيم أو عدم تأييد الثورة. كما هرب آخرون من البلاد، الأمر الذي خلق رد فعل يتزعمه فخرى النشاشيبي أين عم راغب، الذي أشرف على تنظيم عصابات مسلحة في مختلف المناطق مهمتها حماية انصار النشاشيبي ومساعدة البريطانيين في مطاردة الثوار .

لقد فقدت الثورة بعض قوتها الدافعه عندما عارضت لجنة وود هيد في نوفمبر عام ١٩٣٨ مشروع التقسيم السابق، وانتهت في العام التالي وقد قضت عليها الخلافات بين صفوفها وتصدى القوات البريطانية لها. ويقدر عدد الاصابات في أول تجسيد لحركة المقاومة الفلسطينية ينحو ٢٠ ألف عربي، ومن بين الخمسة آلاف أو يزيد الذين لقوا مصرعهم قتل ثلاثة أرباعهم في ميدان القتال، وربما بلغ ضحايا الارهاب اليهودي وضحايا العرب الآخرين حوالي ١٢٠٠ قتيلا كما نفذ البريطانيون حكم الاعدام في ١١٢ عربية، وكان معظم الضحايا من الفلاحين أو سكان الاحياء



يكاد يتعذر نشر رسالة مؤيدة للعرب في صحيفة «التايمز» ولانضم العاصمة بيروت مال عربية تتحكم في رؤوس أموال ضخمة ولا توجد سيطرة عربية على اعلانات الصحف في هذه البلاد، وليس ثمة وزراء مستعمرات سابقين من بين العرب.... أن العنف وحده هو الذى أثار اهتمامنا بمطالبهم .

الجزء الثاني

الشتات الجديد

## الفصل الأول

### خروج ١٩٤٧-١٩٤٨

احتفظت بريطانيا بانتدابها على فلسطين لمدة تسع سنوات بعد هزيمة الثورة العربية. وفي تلك الفترة هيمنت الحرب العالمية الثانية والهجوم المدمر الذي شنته الجماعات الارهابية اليهودية ضد البريطانيين في فلسطين. وكان اغتيال اللورد موين في القاهرة على يد عصابة شتيرن ونسف فندق الملك داود، واعداد الجنود البريطانيين على يد أرجون زفاى ليومي التي كان يتزعمها مناحم بيغن، أسوأ ما حدث في تلك الحملة. وفي وضع لم يكن يشتر بأى أمل في التحسن قرر البريطانيون الذين أضعفتهم الحرب واستأسدت عليهم الولايات المتحدة، التي حال انحيازها السافر المستمر للصهيونية دون تنفيذ سياسة متوازنة في فلسطين- قرروا التخلي عن الانتداب وأعلنوا عن نيتهم في التخلي تاركين المشكلة بين أيدى الأمم المتحدة والواقع أن مصير فلسطين قرره عضو واحد بدلا من الأمم المتحدة ككل فالولايات المتحدة، التي كانت قد اختارت التقسيم وخلق دولة يهودية، عقدت العزم على فرض سياستها داخل الجمعية العامة. وعندما أصبح من غير المؤكد أن يجتذب المشروع أغلبية كافية، رد الأمريكيون بعنف فأعطيت هايتي وليبيريا والفلبين والصين وإثيوبيا واليونان وجميعها عارضت التقسيم جرعات مركزة من الضغط السياسي والاقتصادى وباستثناء اليونان، أمكن اقناعهم جميعا بتغيير موقفها حتى أن مندوب الفلبين وجد نفسه في وضع مثير للسخرية: فبعد أن ألقى خطبة خماسية ضد التقسيم، انتهت بلاده بالتصويت إلى جانبه .

لقد كان مشروع التقسيم الذي فرض على الجمعية العامة في نوفمبر عام ١٩٤٧، مغايرا تماما للمشروع الذي طرحته اللجنة الملكية قبل ذلك بعشر سنوات، فموجب المشروع الأخير، كان الفلسطينيون سيخسرون أراضيهم الأكثر خصوبة على

طول الساحل وفي الجليل، لكنهم كانوا سيحتفظون بمعظم وطنهم. أما في مشروع الأمم المتحدة منحه الصهاينة حوالي ستين بالمائة من مساحة البلاد بما في ذلك الجليل الشرقي والسهل الساحلي المحتد من نقطة عند شمال اشدود مباشرة وحتى عكا تقريرا. وادى سيرايون في المزارع الغنية المحتدة على طول نهر الاردن من جنوبي بيسان إلى طبرية وتقريرا منطقة بحر سبوع من البحر الميت إلى خليج العقبة. أما الحصبة العربية فقد كانت تتألف من الجليل الغربي وجيب عند يافا وقطاع غزة والهضاب الوسطى المحتدة من جنين إلى بحر سبوع على أن تستبعد القدس وبيت لحم من كل من الدولتين ووضعهما في منطقة دولية .

وبالرغم من الهجرة الواسعة النطاق كان اليهود في عام ١٩٤٧ لايزالون يشكلون أقل من ثلث سكان فلسطين، ولم يكونوا يشكلون الغالبية الا في منطقة فرعية واحدة، هي منطقة يافا حيث تل أبيب كما أنهم لم يملكون في أى منطقة فرعية أرضا أكثر من الحرب. ويمكن التدليل على عبث المشروع على أساس حقيقة أنه في الدولة اليهودية المقترحة كان العرب أكثر من اليهود. ففي الجليل الشرقي، الذي يتألف من مناطق صفد وطبرية وبيسان لم يكن اليهود يشكلون غير ربع السكان، وفي منطقة بحر سبوع كان ينتظر من ١٠٣,٨٢٠ عربيا أن يخضعوا لـ ١٠٢٠ يهوديا وهذا الامتداد الاخير من الارض وهو منطقة عربية يسكنها العرب وحدهم تقريرا، أعطى للصهاينة ليس لأنهم طالبوا به، بل لمجرد أنهم كانوا يريدون ميناء على البحر الاحمر.

ان البريطانيين، الذين كانوا يتخبطون خلال فترة الانتداب وهم يحاولون الوفاء بوعود اعترف واحد من مندوبيهم الساميين بأنها كانت متضاربة ولا يمكن الوفاء بها، حاولوا على الاقل أن يكونوا غير متحيزين. أما الأمم المتحدة الخاضعة للهيمنة الامريكية فلم تبذل أية محاولة للانصاف على الاطلاق وكان نصيب مسائل الحقوق والمبادئ هو







الاستيلاء على المدينة القديمة. فبحلول ١٥ مايو، عندما شدت الدول العربية حرباً سافرة ضد إسرائيل ومن ثم بناء على ما ذكرته هيئة الاعلام الاسرائيلية بدأت المشكلة برمتها، كان الصهاينة قد استولوا بالفعل على مناطق كبيرة مخصصة للدولة العربية المقترحة واقتلعوا اعداد غفيرة من اللاجئين من ديارهم .

وتكاد المرحلة الاولى من الحرب تكون من جانب واحد. فقد تمكنت الهاجاناه من حشد ٣٠٠٠٠ جندي على الخطوط الامامية تساندتهم قوات حاميّات قوامها ٣٢٠٠٠ رجل، وشرطة المستوطنات وقوامها ١٥٤١٠ رجل، و ٣٢,٠٠٠ رجل من الحرس الداخلي. وكان إلى جانب هؤلاء الجماعتان الارهابيتان، الارجون، التي بلغ إجمالي اعضائها خمسة آلاف عضواً، وعصابة شتيرن، التي كانت تتألف من ألف مقاتل من أجل حرية إسرائيل وكانت القوة التي تصدت لهم في الجولة الاولى هزيلة. ويبدو أن المفتي ومؤيديه في الحكومات العربية لم يدركوا أن هناك حاجة إلى جيش، وفي ديسمبر ١٩٤٧م، قرروا تشكيل قوة غير نظامية من المتطوعين من مختلف البلدان العربية سموها على نحو غير موفق جيش التحرير العربي. ولما كان هذا الجيش يتألف من حوالي ٥,٠٠٠ رجل، جاء أدائه طيلة الحرب في فلسطين مخيباً للآمال: فلم يكسب معركة، ويعد سلسلة من الانتكاسات المبكرة، كان ينسحب قبل أن يضطر إلى المواجهة. وتشير الابحاث التي جرت مؤخراً حول عملياته في الجليل إلى أن تأثيره على السكان المدنيين هو ذلك التأثير الذي أضعف بوجه عام من روحهم المعنوية وإلى جانب هذه القوة، قام بالدفاع عن فلسطين في مرحلة ما قبل ١٥ مايو القرويون أنفسهم الذين دافعوا عن ديارهم بأقصى ما تتيحه لهم أسلحتهم العتيقة. ولم تكن هناك استراتيجية ولا تنسيق بينهم. وقد خذلهم قادتهم بصورة مخزية حيث كان معظمهم يعيشون في بيروت، والقاهرة، ودمشق. ولم يبق خلال الحرب في فلسطين من اللجنة العربية العليا غير عضوين هما: أحمد حلمي والدكتور حسين فخري الخالدي، ولم

يشارك في القتال غير واحد فقط من من أعيان القدس، هو عبد القادر الحسيني الذي قتل قبل ١٥ مايو بوقت طويل خلال هجوم صهيوني على القسطل .

وليست القيادة وحدها، كما كان الحال من قبل في أغلب الأحيان هي التي خذلت الفلسطينيين، فرد الفعل من جانب الدول العربية لم يكن بدوره كافيا. وباستثناء شرق الأردن لم يكن لدى أية دولة منها، فيما يبدو، أى فكرة عما يعنيه خوض الحرب. فالجامعة العربية التي كانت قد تأسست لتوها وكانت تضم مصر والعراق وسوريا ولبنان والعربية السعودية وشرق الأردن واليمن، لم تشعر أن القتال الفعلي سوف يكون ضروريا. وتصورت لجنتها السياسية أن «حشد القوات العربية الحالية على الحدود سوف يكون كافيا لاقناع الدول الكبرى بالتدخل واجبار اسرائيل على الاذعان للمطالب العربية» وحتى عندما بات واضحا أنه سوف يتمين عليها القتال ظلت الدول العربية راضية عن نفسها بصورة تدعو إلى العجب، وقدمت سوريا لواء قوامه ١٨٧٦ رجلا، ولبنان كتيبة قوامها ٧٠٠ رجل وعندما أبلغ جلوب باشا، الذي كان يقود الفيلق العربى التابع لشرق الاردن، الأمين العام للجامعة العربية بأن لدى الصهانية ٦٥٠٠٠ رجل تحت السلاح، أجاب الأخير «اننى أتوقع أن تسير الامور على ما يرام وعملت الترتيبات اللازمة للحصول على سبعمائة رجل من ليبيا». وعندما سئل كيف سيجرى تسليمهم. أجاب لقد أرسلت رجلا لشراء سبعمائة بندقية من إيطاليا.

على أن دخول الجيوش العربية إلى فلسطين فى ١٥ مايو وضع حدا للهجوم الصهيونى الأول. ومع أن المجموعة المتنافرة من الجنود السوريين واللبنانيين فى الشمال كانت عاجزة عن انقاذ بقايا الجليل، فان وجود لواء من الجنود المصريين فى الجنوب وما قام به الفيلق العربى حول القدس أزاح الضغط عن القرويين الفلسطينيين. وبعد قتال دام اسبوعين تمكنت كتيبة تابعة للفيلق العربى تطهير المدينة القديمة من





لبنان) شمالا إلى صحراء سيناء في الجنوب- الغربي. وكانت أيام أخرى قليلة من القتال كفيلة بتمكيننا من تحرير البلاد كلها وبالنسبة للمراقبين لابد أن يبدو غريبا أن الاسرائيليين غير مكتفين بمكاسبهم فقد كانوا في اواخر عام ١٩٤٨ يسيطرون على أكثر من ثلاثة أرباع فلسطين ويفكرون في الاستيلاء على ما تبقى .

بالنسبة للفلسطينيين لم تكن الهزيمة العسكرية أهم سمة للكارثة لقد هزموا على أى حال في عام ١٩٤٨ واستطاع معظمهم مواصلة حياتهم على غرار ما كانوا من قبل يفعلون. بيد أن هذه الحرب كانت مختلفة إذ أن أكثر من نصف الشعب قد اقتلعوا من أرضهم، وحولوا إلى لاجئين ولم تتح لهم فرصة العودة إلى وطنهم .... هذا التشتت، وهذا الخروج الجماعي إلى البلدان المجاورة، هو السلسلة المحورية للتاريخ الفلسطيني المعاصر. وما من أحد يقدر ان يضم الفلسطينيين اليوم او يعرف افكارهم أو تطلعاتهم أو سلوكهم دون فهم المأساة التي تكمن في جذور المشكلة الفلسطينية والسبب في وقوعها .

لماذا تركوا بلادهم؟ وما الذي يمكن أن يدفع أمة من المزارعين الفلاحين وحرفي المدن الصغيرة إلى هجر أرضها وديارها؟ لقد صدق الناس في الغرب لسنوات عديدة الرواية الاسرائيلية الرسمية، التي تزعم أن الخروج أعقب أوامر صريحة اذاعها رئيس الهيئة العربية العليا (المفتي) ومازال كثيرون يصدقونها: بل أن كتاب الرسائل إلى صحيفتي الجارديان والايلى تلجرف كثيرا ما يستشهدون بهذه الرواية حتى يومنا هذا. وقد قال لي صهيوني انجليزى بارز في عام ١٩٧٩: «لقد أذاع القادة العرب إلى العرب في مناطق حيفا والجليل أوامر تدعوهم الى ترك فلسطين، وانهم سوف يعودون مع الجيوش الفاتحة حين يكافأون بغنائم النصر أنه اتهام شاذ وثبت بطلانه المرة تلو الأخرى، ومن الصعب معرفة ما الذي يأمل الصهاينة في تحقيقه من وراء تكراره دون

توقف. ويبدو أن منطقهم في ذلك هو أنهم لو تمكنوا من اثبات أن الفلسطينيين غادروا البلاد بمحض اختيارهم فإن ذلك يطل بطريقة ما حقهم في العودة إلى وطنهم. ومن الصعب أن نرى السبب في ابطال ذلك الحق، الناس في العالم كله يغادرون اوطانهم في وقت الحرب لأسباب متباينة. ومع ذلك، وأيا كان سبب هروبهم، فإنهم جميعا يملكون نفس الحق في العودة إلى الوطن بعد ذلك. على أى حال، فإن أحدا لم يقم أى دليل يثبت المزاعم الخاصة بالاذاعات. وقد جرت محاولات مستقلة في الخمسينات لاثبات الحقيقة من جانب الثنين من الباحثين هما: الدكتور وليد الخالدي، والدكتور ارسكين تشايلدرز. فقد ذهب تشايلدرز إلى اسرائيل في عام ١٩٥٨ كضيف على الحكومة وحاول أن يجد الدليل على تلك الاذاعات. ولما عجز الاسرائيليون عن تقديم الدليل قرر فحص تسجيلات الاستماع الاميركى والبريطاني لكل اذاعات الشرق الاوسط طوال عام ١٩٤٨، وذكر أنه «لم يوجد امر واحد أو نداء أو اقتراح يتعلق بمغادرة فلسطين من أى اذاعة عربية، داخل أو خارج فلسطين، في عام ١٩٤٨، وتوجد تسجيلات استماع متكررة لنداءات عربية، بل ولأوامر صريحة، إلى المدنيين الفلسطينيين الا يرحلوا اماكنهم .

وثمة دليل آخر على موقف القيادة العربية ورد ضمن رسالة من اللجنة العربية العليا، بتاريخ ٨ مارس ١٩٤٨، تطلب من الحكومات العربية بشكل محدد التعاون في منع الفلسطينيين من مغادرة بلادهم. وجاء بالرسالة: «لقد قررت اللجنة العربية العليا أن من مصلحة فلسطين الا يسمح لأى فلسطيني بمغادرة البلاد الا لظروف خاصة، كالاسباب السياسية أو التجارية أو الصحية القهرية. وفي الوقت نفسه، ففي القدس نفسها، أصدر احمد حلمي وحسين الخالدي بالفعل أوامر تحظر على أى انسان مغادرة المدينة دون تصريح.









«لقد جمعت كل العمد اليهود ممن كانوا على اتصال بالعرب في قرى مختلفة وطلبت اليهم أن يهجموا في آذان بعض العرب بأن تعزيزات يهودية ضخمة قد وصلت إلى الجليل وأنها سوف تحرق كل قرى الحوله. وأن عليهم أن ينصحوا هؤلاء العرب، بوصفهم أصدقاء لهم، بالفرار قبل فوات الاوان. وحقق ذلك التكتيك هدفه تماما. فقد سقط مبنى مركز الشرطة في هلسا في ايدينا دون طلقة واحدة. وتم تطهير المناطق الشاسعة»

كانت هذه الفقرة جذيرة بأن ننقلها بالتفصيل لأن قائدا إسرائيليا، ووزير خارجية ونائب لرئيس الوزراء السابق، يعترف هنا بشئ لاتزال تنفيه الدعاية الإسرائيلية. فوفقا لرواية الدعاية، جاء هرب اللاجئين اثر تعليمات صريحة اذاعها «المفتى». وقد زعمت جولدا مائير طيلة حياتها بأن مشكلة اللاجئين ليست مسئولية إسرائيل ولايزال المبررون الصهاينة في الصحف الغريبة يرددون الخرافة التي تتحدث عن الاذاعات. لكن هنا سياسيا إسرائيليا بارزا يشرح بالتفصيل كيف أسهم هو شخصيا في مشكلة اللاجئين. صحيح أنه لم يذكر المدايح، فذلك أكثر مما نتوقعه منه لكنه يكشف بوضوح أن العرب لم يرحلوا من تلقاء أنفسهم أو استجابة لرغبات المفتى فقد طردوا على نحو مؤكد عاما. وعلاوة على ذلك فإنه يكشف دافع الصهاينة من وراء الطرد، وربما يكشف، عن غير قصد، موقفهم الحقيقي تجاه الفلسطينيين. فهو يتحدث عن طرد العرب ثلاث مرات في هاتين الفقرتين، لكنه بدلا من استخدام كلمات مثل «الطرد» أو «التخلص» يستخدم، في كل مرة، الفعل «يطهر» كما لو كان العرب، سكان البلاد الأصليين يلوثونها بصورة ما. وعندما «يطهر» آللون الجليل من العرب، فإنه كان، وكان يعلم ذلك، يعاملهم كقذارة بالمعنى الحرفي للكلمة. ظاهرة تبينها آثر جينسبرج قبل ذلك بخمسين عاما، ومازال الكثيرون من زوار إسرائيل يتبنونها اليوم .





فى أقرب وقت عملى مع دفع تعويضات عن ممتلكات الذين يؤثرون عدم العودة. لكن الإسرائيليون الذين قاموا بطرد العرب لم يكن من الممكن تصور أنهم سوف يوافقون على عودتهم مرة أخرى. وقد بين موسى شيرتوك وزير الخارجية الجديد، أن الاقتراح كان مستحيلا: فقد كتب إلى برنادوت فى أول اغسطس، معلنا أن إعادة دمج العرب العائدين فى الحياة العادية بل وحتى مجرد اعاشتهم، سوف يخلق مشكلة لايمكن تذليلها، أما السبب فى تعذر تذليلها فليس واضحا، وعلى أى حال، فإن مشروع التقسيم الصادر عن الأمم المتحدة، والذي زعم القادة الإسرائيليون أنهم قبلوه كان يتضمن أن الدولة اليهودية سوف تضم عددا من السكان العرب يماثل السكان اليهود. وماكتبه شيرتوك، قد جاء بعد ثلاثة أسابيع فقط من طرد السكان من الرملة واللد. وبصرف النظر عن حقيقة أن هاتين المدينتين قد نهبتا، الأمر الذى ربما جعل الحياة غير مريحة بصورة مؤقتة، فقد كان من الممكن تماما للعرب العودة إلى ديارهم ومواصلة حياتهم كما فى السابق. وإذا كان إعادة الدمج يعنى مجرد عودة إلى الوضع السابق، فمن الصعب أن تصور كيف يمكن لذلك أن يشكل معضلة يتعذر تذليلها. لكن الإسرائيليين مضوا فى عنادهم ولم يعد العرب. وكررت الجمعية العامة قرارها وكررت إسرائيل رفضها. وفيما بعد قال بن جوريون فى الكنيست «أن إسرائيل ترفض رفضا قطعيا الاقتراح الغادر الذى يدعو إلى منح اللاجئين حرية الاختيار، واليوم وبعد اثنين وثلاثين عاما لانزال الامم المتحدة تعيد كل سنة تأكيد ذلك القرار ولا تنزال إسرائيل كل ستة تتجاهله .

لقد زعم القادة الإسرائيليون أن الخروج العربى كان غير متوقع تماما. وكتب بن جوريون فى سنة ١٩٥٢ قائلا «أن الصهيونية السابقة لقيام الدولة لم تكن حتى تتصور حدوث مثل هذا الشئ ووصف وإيزمان الخروج بأنه «تبسيط معجز لمهمات إسرائيل»

ولكن هل كان الخروج بحق معجزة وألم تتصور الصهيونية حقاً حدوث مثل هذا الشيء؟ ألم يرغب هيرتزل فى طرد السكان المغلسين عبر الحدود؟ ألم يقترح وايزمان توطين العرب فى شرق الاردن؟ ألم يعرف صهاينة عديدون من زانجويل إلى بيجين دائماً انه لابد من طرد العرب؟ كيف إذا كان سيحكن لوزايزمان أن يحقق هدفه فى جعل فلسطين يهودية مثلما انجلترا انجليزية؟ كلا أن ١٩٤٨، لم تكن معجزة لم يحلم بها أحد، بل كانت خطوة متعمدة ومنطقية فى تقدم الصهيونية. وقد اتخذت خطوة أخرى فى عام ١٩٦٧م، عندما تم الاستيلاء على المناطق الباقية من فلسطين وأصبحت مناطق أخرى قليلة «نظيفة» من العرب. وخلقّت مشكلة لاجئين ثانية وكرر التاريخ نفسه. فهل سمح للاجئين بالعودة هذه المرة؟ كلا، كلا، لم يسمح لهم طبعاً. ومن المؤكد أنك يجب أن تفهم؟ لقد كان من شأنهم أن يمثلوا مشكلة لايمكن تذليلها. أو كما قال دايان بشكل أكثر أمانة للاذاعة المرئية الامريكية عندما سئل عما اذا كانت اسرائيل لاتستطيع استيعاب اللاجئين وسكان الاراضى التى تم الاستيلاء عليها؛ وأن ذلك ممكن من الناحية الاقتصادية، لكننى أعتقد أن ذلك لايتماشى مع أهدافنا فى المستقبل.







أسرة لبنانية ومع ذلك لم ينسوا قط أن يبتهم كان في فلسطين. وفؤاد السيد شأنه شأن الكثيرين من الفلسطينيين، لديه نزعة قوية تدعو إلى العجب باتت حاجة ملحة وهاجسا في آن واحد هي أن يتحدث عن وطنه. وأن يصف باستفاضة جمال يافا وبيارات برتقالها كما أنه، مثل آخرين كثيرين، يتحدث دائما عن يافا كما لو أنها لا تزال ميناء الأربعينات القديم الساحر وليس ما صار اليه من مكان يدعو إلى الخجل حيث تحول إلى ضاحية مهجورة ومهملة من ضواحي تل أبيب، استؤصلت بيارات برتقالها وملئت بالأسمنت .

ومع ذلك كانت كل هذه الجماعات من مثقفين ورجال أعمال ومهنيين هي في واقع الأمر الجماعات المحظوظة. فكان لديها ما تستطيع أن تقدمه من مهارات كما كانت قادرة على أن تعود نفسها، وعلى أية حال كان بوسعها أن تختار مكان نفيها الأمر الذي حرم منه أربعة أخماس الفلسطينيين الذين كانوا يشكلون العمود الفقري للمجتمع الفلسطيني - الفلاحون ومن يعولونهم والعمال غير المهرة. الفلاحون الذين طردوا من أرضهم وأصبحوا يحيون في مدن الاكواخ في حيفا. لم يكن لدى هؤلاء ما يستطيعون تقديمه للبلدان المضيفة التي كان لديها ما يكفي من العمال الزراعيين والعمال غير المهرة المحليين. وهكذا عندما بدا واضحا أنه لن تكون هناك عودة سريعة إلى الوطن، ذهبوا إلى مخيمات اللاجئين حيث بقى معظمهم.

وقد أقيمت المخيمات على أى أرض متاحة، مساعدة وكالة الامم المتحدة لغوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين في الشرق الأدنى، وتجمعت مخيمات عديدة حول المدن الكبرى عمان، بيروت، ودمشق حيث قد تتاح لهم فرصة للشعور على عمل. وفي الأردن أقيم بعضها في الصحراء، وفي بلدان أخرى، على أرض وعرة جرداء أو على مجمعات قديمة كانت الجيوش الفرنسية والبريطانية استخدمتها في وقت من الأوقات.





أن حياة اللاجئين تعنى، أولاً وقبل كل شئ؛ المهانة، تعنى أنه يتعين على المزارعين الذين كانوا ذات يوم يفلحون أراضيهم الخاصة أن يختاروا بين البطالة وبيع أوراق البانصيب، وعلى النشأ الانتظار فى الطوابير من أجل حفنات من الأرز والسكر، أنها تعنى أن يقف الأطفال حفاة على طول طريق المطار فى بيروت، يحاولون بيع اللبان لسائقى السيارات وتعنى الخوف وعدم الأمان، أنها تعنى كذلك الاذلال الشديد الدائم من جراء التدخل المستمر من جانب قوة شرطة بلد آخر، انها تعنى التعرض لسخرية واستهزاء السكان المحليين، الذين لن يسمحوا للاجئين بنسبان أنهم غرباء، ويتذكر فواز تركى احد مهرجى الشوارع فى بيروت وهو يطلب من قرده أن يبين لجمهور المتفرجين كيف يلتقط الفلسطينى حصته من الغذاء، ويتذكر آخر من سكان المخيمات الأطفال اللبنانيين الهازئين الذين طلبوا منه أن يريهم ذيله، أما سكان جنوبى لبنان، الذين كانوا قبل عام ١٩٤٨م أكثر تخلفا بكثير من الفلسطينيين، فقد اطلقوا على مخيم عين الحلوة قرب صيدا اسم «حديقة الحيوان» .

ولعل أبرز سمة محطمة للمعنويات لحياة المخيم هى عدم توفر فرص العمل. وكثيرا ما يقال أن البلدان الضيفة كان يمكنها بل ومن واجبها أن تبذل جهدا أكبر لتوفير العمل للاجئين. لكن فلسطينى المخيمات يتألفون أساسا من مزارعين أو عمال غير مهرة وصلوا إلى الأردن، وسوريا، ولبنان عندما كان سكان هذه البلدان قد أخذوا يتركون الأرض فعلا بأعداد ضخمة ويبحثون عن عمل فى المدن. لقد زاد عدد سكان بيروت عشرة أضعاف منذ الثلاثينات، وبحلول عام ١٩٧٠، كانت المدينة واحدة من المدن الأربع أو الخمس الأكثر ازدحاما فى العالم وكانت تضم حوالى نصف سكان البلاد، كان ذلك أساسا نتيجة الكساد الزراعى فى الخمسينات والستينات الذى دفع عشرات الآلاف من صغار الفلاحين إلى البحث عن عملاً يسير فى العاصمة .







اللاجئين تحت سن الثامنة عشر، تربوا في هذا المناخ وترعرعوا على كراهية أولئك الذين أرغموهم على مثل هذا النوع من الحياة، والتعليم هو أفضل طريق للافلات -وحركة المقاومة هي الطريق الآخر- ويدرك آباؤهم ذلك. فالتعليم الناجح يعنى وظيفة لائقة وأجورا محترمة وتأمينا عاليا للأسرة كلها. كما أنه لاينطوى على اعادة الاستيطان الدائم خارج فلسطين. هذا من ناحية هو سبب فى كثرة أبناء اللاجئين: فهم يررون ذلك بالقول أن أحدهم أما أنه سوف يحصل على منحة دراسية من وكالة غوث وتشغيل اللاجئين أو سوف يجد فرصة فى أحد مراكز التدريب المهنى. وهذا يعنى وظيفة فى الخليج أو العربية السعودية وتحويلات مالية إلى آباءهم الذين سوف تصبح حياتهم أكثر راحة نسبيا وهم ينتظرون العودة .

وإدراكا منها لضرورة أن يحصل الفلسطينيون على عمل أينما وجدوا قررت وكالة غوث وتشغيل اللاجئين جعل التعليم فى مقدمة أولوياتها .

وتشرف الوكالة على التعليم الابتدائى والمرحلة الثانوية الدنيا كما أنها تدعم المرحلة الثانوية العليا فى المدارس الحكومية الخاصة، وتساهم بعدد من المنح الدراسية الجامعية كل سنة. ولعل أهم جانب لعمل وكالة غوث وتشغيل اللاجئين هو البرامج الدراسية التى تشرف عليها فى مراكز التدريب المهنى فى الأردن ولبنان وسوريا والضفة الغربية. وبعد عام ١٩٤٨، تحملت حكومات سوريا والأردن الكثير من أعباء تعليم اللاجئين، لكن فى لبنان، الذى قرر الحفاظ على وضع الفلسطينيين كغرباء لم يسمح للاجئين بالالتحاق بمدارس الدولة. وهكذا كان على وكالة غوث وتشغيل اللاجئين أن تعلمهم بنفسها بالكامل، وكتيجة لذلك، أصبحت مدارسها فى لبنان مكتظة وأصبحت مستويات التعليم أضعف منها فى البلدان الأخرى. أما فيما يتعلق بالتعليم الجامعى، فكانت سوريا والأردن ومصر هى البلدان المفتوحة أكثر من غيرها أمام الطلبة

الفلسطينيين وهناك الآن حوالى ٤٠,٠٠٠ فلسطينى يدرسون فى جامعات فى مختلف أرجاء العالم. وبينما يوجد معظمهم فى مصر والأردن، فإن حوالى ١٥,٠٠٠ يدرسون فى جامعات فى الغرب وينخرط هؤلاء الاخيرين فى الدراسات المتخصصة، كعلم الكمبيوتر والميكروبيولوجى التى ليست متاحة بعد فى العالم العربى .

وتقدم مختلف برامج وكالة غوث وتشغيل اللاجئين التدريبية دورات دراسية مكثفة فى المجالات العملية التى يشتد عليها الاقبال. ويتقدم لمركز التدريب المهنى فى دمشق الفى لاجئ للحصول سنويا على ٢٥٠ مكانا. وتركز هذه المراكز على اعداد طلابها بحيث يتسنى لهم فيما بعد العثور على أعمال وهكذا فإن مركز التدريب المهنى فى قلنديه يقوم بدورات دراسية تستمر عامين فى اللحام والسبك ومعدات الآلات وميكانيكا السيارات ونشاطات اخرى يمكن ان توفر لهم عملا فى الخليج وفى أماكن أخرى، وقرب قلنديه مركز تدريب النساء فى رام الله، يجرى تدريب الطالبات لكى تصبحن مرضات، وعاملات صيدليات وحائكات ملابس، وسكرتيرات، وهنا ايضا ينصب التركيز على المهارات العملية النافعة التى من شأنها أن تجعل المنفى أكثر احتمالا .

ووفقا لما يذكره مدير معهد التدريب المهنى فى دمشق فإن حوالى ثلثى طلابه يذهبون إلى دول الخليج، ويجد الثلث الباقى عملا فى سوريا وينضم نفر قليل منهم إلى المقاومة. ويشير إلى أن أفضل طلابه يجيئون دائما من الخيمات. لقد منحهم وكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفرصة للهروب وقليلون هم الذين يضيعونها .

لقد برز الفلسطينيون خلال سنوات المنفى بوصفهم افضل جميع الشعوب العربية تعليما فنسبة الطلبة الجامعيين بينهم أعلى منها فى بريطانيا أو فرنسا .

هكذا كان التعليم هو الشئ الوحيد الذى ترك لهم، والسبيل الوحيد الذى

يمكنهم من أن يثبتوا للشعوب التي تملك أوطاناً أنها ليست أفضل من الفلسطينيين. ومن ثم تمسكوا به، كشارة افتخار وكذلك كاستثمار من أجل المستقبل، ولم يدعوا تلك الفرصة تفوتهم ويتولى الفلسطينيون الآن مواقع أكاديمية بارزة في جميع الشرق الأوسط وفي الغرب كذلك، وقد وصفهم آرنولد توينبي ذات مرة بأنهم من رواد العالم العربي غير المعترف بهم «وقارن طردهم من بلادهم بطرد اليونانيين من بيزنطة في عام ١٤٥٣».

لقد تباينت إلى حد كبير فرص العمل بالنسبة للاجئين في كل من البلدان المضيفة الثلاثة. فشرق الأردن، الذي استوعب القدس الشرقية والضفة الغربية وأصبح يعرف بالأردن، أنهى حرب ١٩٤٨، وبه أغلبية فلسطينية. وأصبح الفلسطينيون، من لاجئين وسكان الضفة الغربية على حد سواء، مواطنين في المملكة الهاشمية وسرعان ما بدأوا في المشاركة في حكم البلاد وتجدد التحالف بين الملك عبد الله وعائلة النشاشيبي وأصبح معظم الأعيان الفلسطينيين مؤيدين للنظام ومع أنه كان هنالك عادة توتر بين اللاجئين وأنصار الملك البدو، فإن أعداداً ضخمة من الفلسطينيين وجدت عملاً في الأردن وانضم بعضهم إلى الجيش والخدمة المدنية، أن عمان، التي كانت قرية كبيرة في عام ١٩٤٨، قد بناها وسكنها الفلسطينيون وحدهم تقريباً.

ولم يعط اللاجئين حق المواطنة لا في سوريا ولا في لبنان، وأن كان قد سمح لهم في سوريا بالانخراط في صفوف الجيش ودخول الخدمة الحكومية. إن الفلسطينيين الذين يبلغ عددهم في سوريا الآن نحو ٣٠٠,٠٠٠ نسمة ربما كان لثلاثهم لاجئين من الحريين الأهليتين الأردنية واللبنانية، يتمتعون بنفس الحقوق التي يتمتع بها السوريون فيما عدا أنهم لا يملكون جواز سفر. وتطبق عليهم نفس القوانين وتتاح لهم نفس الفرص ولا يحتاجون إلى تصاريح عمل. أما في لبنان فالوضع دائماً

أسوأ حيث لا يعتبر الفلسطينيون رعايا وعليهم أن يحصلوا على تصاريح عمل لا تمنح في غالب الأحيان، ويحظر عليهم دخول الجيش أو الحكومة. ومع ذلك فمن الغريب أن تكون بيروت هي المدينة التي كان الفلسطينيون أكثر نجاحا فيها. لقد كانت المدينة الوحيدة في العالم العربي التي سمحت بحرية غير مقيدة للتعبير، ومن ثم أصبحت العاصمة الثقافية للمنطقة. لتجتمع الأكاديميون الفلسطينيون هناك حيث عمل الكثيرون منهم كعلماء سياسيون، واقتصاديين، ومؤرخين في الجامعة الأمريكية، وأنشئت أجهزة مثل معهد الدراسات الفلسطينية ومركز الأبحاث الفلسطينية والرابطة اللبنانية للإعلام حول فلسطين. وفي عالم الأعمال حقق عدد من الفلسطينيين نجاحا بارزا في التشييد والمصارف، فمصرفان من أحسن المصارف التي عملت من لبنان؛ المصرف العربي، ومصرف اترا قد أسسهما ودارهما فلسطينيون. والأهم من ذلك كله، أن بيروت أصبحت عاصمة لحركة المقاومة ولمقر قيادة منظمة التحرير الفلسطينية .

ومع ذلك كان حتميا أن تكون فرص العمل في البلدان المضيفة محدودة، ومنذ البداية أخذ الفلسطينيون يبحثون عن عمل في أماكن أخرى ولعل ٦٠,٠٠٠ فلسطيني هاجروا إلى الغرب، حيث ذهب العدد الأكبر إلى الولايات المتحدة وذهب معظم البقية إلى بريطانيا أو استراليا أو كندا أو البرازيل. ويحيا عدة مئات من أهالي مدينة بيت جالا في أمريكا اللاتينية موزعين بين شيلي وبوليفيا وبيرو واکوادور وهوندوراس ونيكاراجوا.

أن لبیت لحم وفقا لما ذكره عمدتها أكثر من مائة خريج يحملون شهادات الدكتوراه ويعملون في الولايات المتحدة. ويعمل الفلسطينيون في الغرب في المهن أو كأكاديميين. لكن أعداد أكبر بكثير ذهبت إلى أجزاء أخرى من العالم العربي، إلى الخليج عادة. وإذا كانت بيروت المركز السياسي والثقافي للشئات، فإن الكويت قاعدته التجارية. وقد بدأ الفلسطينيون يصلون إلى الكويت عقب حرب ١٩٤٨ مباشرة في

الوقت المناسب للمشاركة فى الازدهار النقطة العظيم. وقد حدد آخر احصاء للسكان نشر فى عام ١٩٧٥، عددهم ٢٠٤,٠٠٠ فلسطينى وزيد عددهم الآن من ربع مليون نسمة، ولما كانوا يشكلون عشرين بالمائة من السكان فانهم يشكلون بما لا يقاس أكبر جالية غير كويتية، ويعترف الكويتيون أنفسهم بالدور البالغ الذى لعبه الفلسطينيون فى بناء الدولة .

ومع أن حفنة فقط هى التى منحت الجنسية الكويتية، فإن معظم الفلسطينيين قد ذهبوا إلى هناك بجواز سفر اردنى أو جواز مرور سورى أو لبنانى، على أمل البقاء هناك على الاقل حتى يتقرر مستقبلهم كشعب. وعلى النقيض من رفقاتهم من دول الشرق فإن الفلسطينيين فى الكويت فى معظمهم مزدحرون (حيث يتألف العمال اليدويون فى الكويت من المصريين والايروانيين أو الباكستانيين أو الكوريين). فأكثر من نصفهم يعملون فى قطاع الاستثمار الخاص، عادة فى مشاركة مع الكويتيين وسيطرون على مشروعات ضخمة كشركة المقاولين المتحددين التى تعمل الآن فى بلاد بعيدة كموريتانيا والسودان الا ان هناك ٢١,٠٠٠ فلسطينى فى الخدمة المدنية ويتجاوز عددهم فى المهن التعليمية والطبية عدد الرعايا الكويتيين انهم لا يصبحون وزراء ولا رؤساء ادارات، لكن الفلسطينيين هم فى الغالب العقول الانشط سواء فى الحكومة أو فى الاعمال التجارية، ومع ذلك فإن الجالية الفلسطينية ليست محل ترحيب كامل من جانب الكويتيين وذلك بسبب سياساتها التقدمية عادة. كما انها تعاني من قدر معين من التفرقة. وعلى سبيل المثال، فمع ارتفاع مستوى التعليم بين الفلسطينيين عنه بين الكويتيين اضطرت الحكومة إلى أن تصدر تشريعا يعطى الاولوية لتشغيل رعاياها فى مختلف المجالات .

وازداد عدد الجاليات الفلسطينية فى كل بلدان الخليج العربية باستثناء عمان

التي تستبعدهم. واكبر هذه الجاليات وأسرعها نمواً فى الامارات العربية المتحدة، ويعتقد أن حوالى ٦٠,٠٠٠ فلسطينى يعيشون فى أبوظبى ودبي، رغم أن الحكومة ترفض تقسيم سكانها البالغ عددهم ٨٢٦,٠٠٠ نسمة تبعاً للمواطن الاصلى. وهى من الناحية الاجتماعية شبيهة بالجالية الموجودة فى الكويت: أطباء، وكتبة، ومقاولون، وعمال مهرة كالكهربائيين والميكانيكيين وما اليهم، وكثيرون منهم من كبار الموظفين (أن لم يكونوا الاكبر) ابداً فى الوزارات والسفارات فى الخارج. وبصورة أكبر مما فى الكويت فانهم يظنون على السكان الاصيلين والتمايز بينهم ملحوظ. فالفلسطينيون بيض البشرة وتردون الملابس الغربية، كما أنهم اسرع حركة ويتحدثون بلهجة عربية تختلف عن لغة سكان شبه الجزيرة العربية السمر البشرة بحلباسهم الفضفاضة الناصعة البياض. ويشعر الفلسطينيون انهم موضع استياء، وهذا ممكن عاماً، إذ أن هناك نوعاً من العلاقة الاستعمارية بينهم وبين مضفيهم ومع ذلك فلم يواجهوا قط فى الخليج نوع المشاكل التي كان عليهم مواجهته فى الأردن أو لبنان والمرة الوحيدة التي تعرض فيها الفلسطينيون لنوع من أنواع الضغط البوليسى كان فى ابوظبى فى عام ١٩٧٧، عندما قتل مسلح فلسطينى وكيل وزارة خارجية الامارات العربية المتحدة، ربما عن طريق الخطأ، فيكاد يكون من المؤكد أن الهدف الحقيقى كان وزير الخارجية السورى، عبد الحليم خدام، الذى كان إلى جواره .

والواقع أن كثيرين من الفلسطينيين ممن يعيشون فى الخليج واسعوا الشراء. ولا توجد ضريبة على الدخل فى تلك البلاد ويكسب بعض رجال الاعمال ١٠٠,٠٠٠ جنيه استرليني سنوياً، إلا أن تلك المعادلة المشكوك فيها والتي تلعب دوراً عظيماً فى السياسة الخارجية الامريكية- وهى كلما تزايدت الثروة المادية كما ضعفت الروح القومية- لا تنطبق هنا. فلا يزال رجال الاعمال هؤلاء يشعرون بجاذبية وطنهم ويعيشون بالمساهمات إلى الصندوق القومى الفلسطينى أو الهلال الاحمر الفلسطينى وبعضهم

أعضاء في المجلس الوطني الفلسطيني (وهو نوع من البرلمان في المنفى). وهم يدركون بصورة جنونية أنهم بلا دولة ويتوقون إلى بلد ينتمون إليه وحتى إذا ما واصلوا العيش في أبوظبي أو قطر أو البحرين، فإنهم سوف يظلون بحاجة إلى مكان يمكنهم الارتباط به. أن ارتباطهم بوطنهم لازال على ما كان عليه من قوة ويظهرون ذلك بالطريقة التي يربون بها أطفالهم الذين يعرفون، شأنهم شأن الأطفال الفلسطينيين في كل الشتات، من أين جاؤا في فلسطين وبلحق الكثيرون منهم في الكويت بمدارس تشرف عليها منظمة التحرير الفلسطينية .

وهذا الشعور بالارتباط - وهو شعور يتعذر استئصاله بالدرجة التي فشلت معها كل المحاولات الرامية إلى إعادة التوطين - يصعب على غير الفلسطينيين وصفه وربما لايمكن فهمه فعليا الا عند الاستماع إلى فلسطيني وهو يتحدث عن وطنه. أن عبد الله هامان هو الآن مسئول وكالة غوث وتشغيل اللاجئين عن منطقة الخليل في الضفة الغربية. وقبل عام ١٩٤٨، كان يعيش في مساحة كبيرة من بيارات البرتقال قرب يافا، فبعدما طرد من بيته في أولى عمليات خطة داليت، أصبح مواطنا أردنيا وأقام في الخليل. وفي عام ١٩٦٧، اكتسح الإسرائيليون داره الثانية، في عملية فتحت الحدود التي كانت تفصله عن قريته القديمة. وبعد ذلك مباشرة ، وبذلك الدافع الالزامي المشترك بين عديدين من الفلسطينيين قام برحلة إلى بلده السابق. كانت داره مع تلك التي لأقاربه قد دمرت منذ وقت طويل لكن بيارات الحمضيات كانت مازال هناك ووقف يتأمل ثمارها ويصف التجربة بدموع وهو يقول «لا تتصور الالم الذي يتناكب عندما ترجع إلى موطن طفولتك، وترى بساتين برتقالك كما تتذكرها وهي محملة بالثمار الناضجة، كما لا تذكر عذاب أن ترى أناسا آخرين يتولون رعاية أشجارك وأن تعرف أنك غريب هناك، ومحظوظ عليك أن تلمس ولو برتقالة واحدة .

وفى حانوت صغير قرب قصر العظم، فى قلب دمشق القديمة، كان فلسطينى عجوز يعمل حتى عهد قريب، حيث كان يبيع القدور النحاسية والصناديق الخشبية المطعمة. لقد جاء من مكان قريب من روش بينا فى الجليل الشرقى واجبر على النفى عندما قرر بيع جبال آللون «تطهير» المنطقة من العرب. لكنه فى كل عام، فى ذكرى نفبه، كان يسافر إلى القنطرة ويصعد إلى مرتفعات الجولان، وفى مكان بين الجولة وبحيرة طبرية كان يتوقف وينظر إلى داره فى السهل -- عبارة عن نقطة صغيرة على بعد خمسة أو ستة أميال. عندئذ كان يدعو الله أنيساعده على العودة. لقد فعل ذلك طيلة تسع عشرة عاما إلى أن استولى الإسرائيليون فى عام ١٩٦٧، على الجولان ليحرم حتى من هذه السلوى، وظل حتى وفاته يشارك جميع الفلسطينيين نفس الآمال وهو أنه سيأتى اليوم الذى يسمحون له فيه بالعودة إلى الوطن .

كذلك يعبر الشعر الفلسطينى عن هذا الشعور بالتعلق بالوطن، والواقع أن معظمه لا يكاد يهتم بموضوع غيره. واللغة العربية، أكثر من معظم اللغات تتأثر بالترجمة، ولا فائدة تذكر من مناقشة مزايا هذا الشعر هنا، وأن كان من الأهمية بمكان لأنه يصور جيدا مواقف الفلسطينيين تجاه وطنهم، والشعر الفلسطينى الحديث الذى وصفه أحد النقاد بـ «شعر الاحتلال» يمكن أن يقال أنه قد نشأ مع أعمال توفيق زياد وسميح القاسم وسليم جبران وفوزان الاسمر، ومحمود درويش - وكلهم باستثناء الاسمر، أعضاء عرب فى الحزب الشيوعى الإسرائيلى - لقد كان تأثيرهم على الشعراء الفلسطينيين فى الشتات بالغاء، ومنذ عام ١٩٦٧، نشأ جيل من الشعراء الشبان، الذين يكتبون بنفس الأسلوب، تحت الاحتلال الإسرائيلى فى الضفة الغربية وغزة .

والشعر الفلسطينى شعر غنائى غير مقفى، يركز على التخيل. ويتكرر ذكر القدس



لمدة خمسة عشر شهرا وقيل له مرارا انه لن يفرج عنه الا إذا رحل عن البلاد. وهذا رده:

لا تطلبوا منى المستحيل

لا تطلبوا منى قنص النجوم، والسير إلى الشمس .

لا تطلبوا منى ا فراغ البحر، ومحو ضوء النهار

فأنا لست سوى انسان

لا تطلبوا منى هجر عيني وحى

وذكريات طفولتى .

لقد ترعرعت فى ظل زيتونة

واكلت تين بستانى

وشربت عصيرا من كروم المنحدر

وتذوقت ثمرة الصبار فى الوديان

كثيرا، كثيرا

وشدا العند لبقى اذنى

ولمستنى رياح الحقول والمدن الطليقة

يا صديقى

لا تطلب منى هجر وطنى.









يمكن القاء القبض عليهم واحتجازهم، لفترة غير محددة دون اتهام، لقد سجن الشاعر، فوزى الاسمر، دون محاكمة لمدة خمسة عشر شهرا ولم يفرج عنه الا بعد احتجاجات من الخارج. ومع ذلك حددت اقامته فى اللد سنة أخرى بينما قامت السلطات الإسرائيلية مرارا «بتشجيعه» على مغادرة البلاد .

وكما لو أن نظم الانتداب لم تكن سيئة بالقدر الكافى فقد جرى تدعيم سلطات الحكم العسكرى بقانون ومرسوم حكومى مكنا وزير الدفاع من أن يصرح باقامة «مناطق دفاع» و «مناطق أمن» متى شاء ذلك. وبموجب هذا المرسوم تمت معظم عمليات طرد القرويين ومصادرة اراضيهم. وكان كل ما على الوزير أن يفعله هو أن يعلن أن هذه المنطقة أو تلك «منطقة أمن» محظورة على الجميع فيما عدا العسكرين والشرطة، وأنه يمكن طرد سكان المنطقة. وقد حدث ذلك لقبائل عديدة من بدو النقب ولقرى متعددة فى الخليل، بما فيها اقربت وكفر بيريم والمجدل، وام الفلاح.

وهكذا وفرت تلك اللوائح الاطار القانونى لمعاملة إسرائيل لاقليتها العربية. بأى المقاييس، معاملة قمعية ومن المفيد أن نقرأ ما تعين على محام صهيونى، هو يعقوب شمشون شايبير، قوله عن نظم الانتداب فى عام ١٩٤٦: «أن النظام الذى أقيم فى فلسطين منذ صدور قوانين الدفاع لانتظير له فى أى بلد متحضر، ولم توجد مثل هذه القوانين حتى فى المانيا النازية... ومن واجبا أن نقول للعالم كله أن قوانين الدفاع التى اقترتها حكومة الانتداب البريطانى فى فلسطين تقوض اسس العدالة ذاتها فى هذا البلد. لقد اصبح شايبير فيما بعد مدعيا عاما ووزير للعدل فى إسرائيل لكن بما لا يدعو للغرابة حقا أنه لم يجد ضرورة لالغائها. فالقوانين التى تبدو وبغيضة بدرجة تعذر معها وجودها حتى فى المانيا النازية «أصبحت كما هو واضح بجلاء مقبولة تماما متى طبقت على العرب .

أن أى زائر لإسرائيل، شريطة ألا يرافقه مرشد من وزارة الاعلام، سوف يلاحظ أن عرب البلاد أقلية معدمة. فالتفرقة ضدهم صارخة ومرسومة. وكما قالت شولا ميت ألونى، عضو الكنيست وزعيمة حركة الحقوق المدنية فى إسرائيل، فى الكنيست فى أكتوبر ١٩٧٥: «أنه فى السنوات الثمانية والعشرين منذ قيام إسرائيل لم تتعلم حتى الآن على المرء أن يعامل العرب كمواطنين لهم نفس الحقوق والواجبات وأن يعالج مشكلاتهم كما يعالج مشكلات كل المواطنين بصورة مباشرة وبدون تفرقة» .

ويعتبر التعليم مصدر شكوى رئيسية، فمستويات التعليم منخفضة للغاية بين السكان العرب ويرجع ذلك فى جانب منه إلى عدم وجود ما يكفى من المدارس وفى جانب آخر إلى سوء تجهيز المدارس القائمة . ففى قرية دير الأسد فى الجليل هناك ١,٣٠٠ تلميذ بالمدرسة الابتدائية وهو عدد كاف فى تصورنا لتبرير وجود مدرسة ثانوية. إلا أنه لا توجد مثل هذه المدرسة هناك أو فى أى مكان قريب - اللهم إلا مدرسة فى الكرميل لا تفتح أبوابها إلا لليهود - وعلى أى تلميذ يريد الذهاب إلى مدرسة ثانوية من دير الأسد أن يقطع يوميا مسافات طويلة ذهابا وإيابا، أما إلى عكا أو إلى الناصرة مع تحمل نفقات كبيرة. فى مثل هذه الظروف ليس غريبا أن ثلثى الاطفال العرب لا يتجاوزون ابدا المستوى الابتدائى. أما المدارس القائمة فعلا، فإن الكثير منها يدعو للرائء، فهناك نقص فظيع فى الامكانيات فكل المدارس تقريبا ينقصها الملاعب والمكتبات والمعامل .

وفى الناصرة الفصول مؤقتة، فى مباني مستأجرة وموزعة فى أرجاء المدينة .

ويمكن قياس اهمال إسرائيل لتعليم العرب بعدد طلبة الجامعات، فمع أن العرب يشكلون خمس عشرة بالمائة من سكان إسرائيل، فإن هؤلاء الطلبة يشكلون أقل من ثلاثة بالمائة من طلبة الجامعات فى البلاد . وهذا الاهمال مقصود: فإسرائيل لا تريد أقلية جيدة التعليم. وكما أوضح ذات مرة أورى لوبرانى، المستشار المساعد لرئيس الوزراء للشئون

العربية، قائلا: «ربما كان من الافضل ألا يكون هناك طلاب عرب فلو أنهم ظلوا يقطعون الاخشاب فربما كانت السيطرة عليهم أيسر وبصرف النظر عن الحاجة إلى الابقاء على العرب فى حالة من الجهل كى يواصلوا تزويد إسرائيل برصيد كبير من العمال غير المهرة، فإن سياسة الحكومة التعليمية تستهدف بجلاء الحد من مشاعر الوعى القومى بين الفلسطينيين .

ولتحقيق هذا الهدف يجبر التلاميذ العرب ترديد النشيد الوطنى اليهودى. وتعززا محاولة تحقيق الهيمنة الثقافية، لم ينشر كتاب عربى واحد فى إسرائيل خلال السنوات العشر الاولى ويستعان بالمناهج الدراسية لتأكيد هذه السياسة فالأطفال العرب فى المدرسة الثانوية يتعلمون الادب العبرى والعربى، لكن بينما يفرض عليهم دراسة شعراء صهاينة أمثال بياليك، وشيمونى، وى.ل. بيرتيز، فإن القصائد العربية الوحيدة التى يسمح لهم بقراءتها تتناول الطبيعة والحب وماشابه ذلك وبالمثل، فانهم يقضون ٢٥٦ ساعة فى دراسة التقاليد اليهودية المنقولة شفاهيا من جيل إلى جيل، والتوراه لربما لكى يتعلموا أن فلسطين ليست، فى الواقع، ملكا لهم، وثلاثين ساعة فقط فى دراسة القرآن. وعلاوة على ذلك يخصص للتاريخ اليهودى وقتا أطول من الوقت المخصص للتاريخ العربى، أما العصور العظيمة فى التاريخ العربى فتحذف من الكتب المدرسية. والشئ الوحيد الذى يتعلمه التلميذ العربى عن صلاح الدين هو أنه كان له طبيب يهودى يدعى موسى بن نيمون .

كذلك فإن العمل مصدر آخر من مصادر شكوى العرب الأساسية. لقد كانت الزراعة دائما عماد الاقتصاد الفلسطينى، وحتى عام ١٩٤٨، كانت غالبية السكان العرب تشتغل بالزراعة. لكن مصادرة الاراضى، التى اعقبت الحرب والتى سوف نناقشها فيما بعد قوضت مصدر معيشة الكثيرين من العرب الذين ظلوا على قيد الحياة ودفعتهم إلى

الملدن بحثا عن العمل وقد وصف الكاتب الإسرائيلي، أهارون كوهين، وضعهم قائلا:

«أن العامل العربي الذي تمكن من العثور على عمل في السنوات العشر الأولى لم يجد سوى الأعمال البغيضة التي لا يقبلها العمال اليهود كأعمال الحجارى أو البناء ولم تتساو أجور العمال العرب قط مع تلك المدفوعة لليهود، حتى وأن أدى العربى نفس العمل. والواقع أن اعمالا كثيرة يحظر أن يقوم بها العمال والموظفين العرب .

والعامل العربي الذى كان يجد عملا مؤقتا فى مستعمرة يهودية نائية كان يمكن طرده بحجة أنه «غير منظم» .

و «غير منظم» تعنى أنه لا يتمشى إلى الهستدروت، الاتحاد العام للعمال فى إسرائيل - وما ليس غريبا هو أنه، حتى عام ١٩٦٢، لم يسمح لأى عربى بأن يصبح عضوا فى هذا الجهاز النقابى القوى. وحتى عندما سمح للعرب بالانضمام إلى الهستدروت لم يتحسن وضعهم الابصورة هامشية، ولا يزال العرب إلى اليوم يؤدون معظم الاعمال الرضية فى إسرائيل مثل غسل الاطباق واصلاح الطرق، وجمع القمامة وما إلى ذلك .

ولا يزال بعض العرب يعطون فى الزراعة، كمزارعين أو مستأجرين، بل كعمال فى المزارع اليهودية. ومن الناحية الرسمية، هنالك معارضة شديدة لذلك حيث أن اليهود هم وحدهم المسموح لهم بالعمل فى الأرض التى تملكها الدولة أو الصندوق القومى اليهودى (أى حوالى تسعين بالمائة من الارض) .

وفى ديسمبر ١٩٧٤م، أعلن وزير الزراعة الإسرائيلى أن «هيمنة العمال العرب على الزراعة اليهودية سرطان فى جسدنا». وبعد ذلك بأشهر قليلة، بدأت وزارته وإدارة الاستيطان التابعة للوكالة اليهودية، وفقا لما نشرته صحيفة معاريف الإسرائيلية، «حملة

عينة لاستئصال طاعون تأجير الأراضي والبساتين للمزارعين البدو والعرب في الجليل الغربي. ومع ذلك فلأن من الممكن تشغيل العرب بأجور أقل بكثير من أجور اليهود وكذلك لأن من الممكن طردهم دون مشكلات، فلا يزال كل من «السرطان»، و «الطاعون» مستمرا .

أن توسع الاقتصاد الإسرائيلي وانخفاض الهجرة اليهودية من الخارج اتاحا اعمالا لمعظم السكان العرب وأن كانت اعمال وضيعة إلى حد كبير، لكنهما لم يحسنا وضع المثقفين الفلسطينيين، الذين لا يجدون، في الغالب عملاك أولا لأنهم عرب، وثانيا لأنهم يعتبرون «غير ساميين» من الناحية السياسية. وحتى اذا ما ما تغلبوا على العقبة الاولى، وهذا لم ينجح فيه كثيرون، فإن العقبة الثانية تثير عدة تعقيدات .

لقد فقد فوزى الامر وظيفته الاولى في دار للطباعة يديرها الحزب الاشتراكي، المبابام لأنه رفض أن يصبح عضوا في الحزب، وفيما بعد، عندما رفضه قال له مسئول في فرع الشرطة الخاص انه لن يحصل أبدا على وظيفة مالم يغير خطه السياسى (وهو صورة معتدلة من القومية العربية).

وعندما عين محمد الميزى محاضرا في جامعة حيفا، حاولت وزارة الدفاع حثه على أن يصبح مخبرا. وعندما رفض، أبلغت الوزارة العميد في حيفا بأنه خطر على الامن ولايجب قبوله كمحاضر. ولم يعد الميزى إلى وظيفته الا بعد أن أثار عاصفة من الاحتجاج .

أما صفحة الاعلان عن وظائف في صحيفة يديعوت احرونوت بالعربية فهى تكشف عن اسلوب آخر للتفرقة ضد العرب في الوظائف. ذلك أن حوالى تسعين بالمائة من الوظائف المعلن عنها تخصص للذين أدوا الخدمة العسكرية فقط. وحيث أن العرب باستثناء الدرروز، لا يؤدون الخدمة العسكرية، فإن هذه وسيلة غير مهذبة بالمرّة لضمحان عدم

تقدمهم إلى معظم الوظائف .

والترفة ضد المناطق العربية، خاصة في مجال الاسكان، هي سبب آخر للشكوى. فهنا تعتبر سياسة الحكومة المعادية للعرب أشد ما تكون وضوحا فليس محظورا على العرب أن يعيشوا على أرض يملكها الصندوق القومي اليهودي بل كان عليهم أيضا أن يعانون من مصادرة أراضيهم الخاصة حتى يتسنى بناء مدن جديدة لا يسكنها غير اليهود وأسوأ مثلين على هذا هما مدينتا الكرميل، والناصره العليا. فالكرميل مدينة كثيفة بمبانيها البرجة المتماثلة المقامة دون ذوق على طبيعة الجليل الفاتنة لقد بناها العمال العرب فوق أرض مصادرة من ثلاث قرى عربية ومع ذلك لايسمح لأى عربى أن يسكن أو يبدأ عملا تجاريا هناك. عندما حاول اثنان من رجال الأعمال العرب، كل بمفرده، الحصول على تصريح ببناء مصانع فى الموقع الصناعى للمدينة فى عام ١٩٧٢، أثارا عاصفة احتجاج ج بين السكان .

فقد زعم هؤلاء أن الكرميل جزء من مشروع لـتهويد الجليل، وانهم قد وعدو بأنها سوف تظل مدينة يهودية صرفة، وأنها سوف لا تطلق لو سمح للعرب بالعيش فيها ، وقبلت الحكومة حججهم ورفض التصريح لرجلى الاعمال. ومرة اخرى عندما وافق رجل على تأجير داره لعربى من قرية مجاورة، وقع معظم السكان على التماس يطلبون فيه فسخ العقد كمبدأ .

أما مشاكل مدينة الناصرة العربية وعلاقتها مع جارتها اليهودية، الناصرة العليا، فتكشف المصاعب التى يواجهها العرب فى إسرائيل باستمرار فالناصرة اكبر مدينة عربية فى إسرائيل وسكانها مقسمون بالتساوى بين المسيحيين والمسلمين. وقد زاد حجم سكانها السابق على عام ١٩٤٨ البالغ ١٤,٠٠٠ نسمة بـ ١٠,٠٠٠ لاجئ من ريف الجليل ومنذ ذلك الحين ارتفع العدد حتى بلغ ٤٥,٠٠٠ نسمة واليوم تعتبر مدينة قدرة مهحلة

ومكتظة بالسكان ولأن مجلسها يسيطر عليه الحزب الشيوعي من ناحية ولكن أساسا لأنها عربية لانهم الحكومة بتطوير الناصرة. فالمدينة لا تحصل على اعتمادات للتنمية ولا توجد بها صناعة، أما المصانع القليلة التي وجدت بها أيام الانتداب فقد أغلقت في الخمسينات، الأمر الذي يدفع ثمانين بالمائة من القوة العاملة إلى البحث عن عمل خارج المدينة وعادة في المصانع اليهودية في حيفا. أما الاسكان العام فلا وجود له ووفقا لتقرير نشر في صحيفة هآرتيز الإسرائيلية :

«أن وزارة الاسكان لم تبني مسكنا واحدا في الناصرة منذ عام ١٩٦٦. وتحتاج الناصرة كل عام إلى ما بين ٤٠٠ و ٥٠٠ وحدة سكنية اضافية للحفاظ على الاوضاع السكنية في مستواها الحالي دون الاخذ في الاعتبار الاحتياجات السكنية لاستيعاب الشبان المهاجرين إلى الناصرة من القرى المجاورة .

وزيد من حدة الموقف وجود الناصرة العليا على تل يطل على المدينة القديمة. وخلال الخمسينات، صودرت الاراضى من قرى عديدة ومن الناصرة نفسها لبناء مدينة يهودية صرفة في منطقة عربية. وقد بدئ العمل في الموقع دون استشارة عمدة الناصرة أو حتى دعوته إلى الاطلاع على الرسومات وتضم الآن ١٦,٠٠٠ من السكان اليهود ومع ذلك فإن مخصصات ميزانيتهما أعلى من مخصصات المدينة التي يبلغ عدد سكانها ما يقرب من ثلاثة أضعاف سكان الاولى. وهناك في الناصرة العليا مصانع عديدة، مصانع نسيج، وأغذية، ومصنع لتجميع السيارات، ولا توجد فيها بطالة. كما أن بها عشرات الشقق الشاغرة، ولكن، لأنها مبنية على أرض يملكها الصندوق القومي اليهودى يحظر على العرب شراؤها، حتى وأن كانت الارض قد انتزعت منهم في بادئ الامر .

وعندما تجاهلت بعض الأسر العربية القانون في عام ١٩٧٥ واشترت أو استأجرت عدة شقق ارتفعت اصوات الاحتجاج بين السكان اليهود. ووفقا لما نشرته صحيفة

معاريف الإسرائيلية، فإن «السكان يشكون من أن الموقف لا يحمل .... (و) يهددون بهجر المدينة جماعيا والانتقال إلى المدن المجاورة؛ مالم تتخذ الاجراءات الكفيلة بمنع تغفل الاسر العربية في ذلك الجزء من المدينة (أى، الناصرة العليا). وخاصة في المجمعات السكنية حيث يسكنون .

وتعانى المناطق الريفية العربية ماتعانى منه الناصرة. ووفقا لما ذكره أحد أعضاء الكنيسة فانه من الاموال المخصصة للتنمية المحلية ولايذهب إلى القطاع العربى أكثر من واحد بالمائة. وأعلن عضو آخر، هو شولا ميت آلونى، فى سنة ١٩٧٥ أن «تحويلا مقارنا لميزانية البلديات المحلية لسنة ١٩٧٤-١٩٧٥، فى القطاعين اليهودى والعربى يبين بوضوح التفرقة الصارخة ضد القطاع العربى. ومضت إلى الاشارة إلى أنه بينما حصلت مدينة شفا عمرو العربية، التى يبلغ عدد سكانها ١٥,٠٠٠ نسمة ، على ميزانية بلغت ٣,٩ مليون جنيه إسرائيلى وحصلت قرية كفر قنة العربية البالغ عدد سكانها ٧,٠٠٠ نسمة ١,٢ مليون جنيه، فإن مدينة مجدل هابميك (١٢,٠٠٠ نسمة) حصلت على ١٥ مليون جنية إسرائيلى وخصص بمستوطنة آزاتاه (التي تسمى الآن نيتيفوت) ، والتي لايزيد عدد سكانها عن ٥,٠٠٠ نسمة ١٧ مليون جنيه إسرائيلى. وبعبارة أخرى، فانه فى مقابل كل جنيه اتفق على أحد سكان قرية كفر قنة العربية، اتفق اثنان وعشرون على كل مستوطن يهودى فى آزاتاه .

أن هذه التفرقة واضحة لأى انسان يكلف نفسه مشقة مقارنة قرية عربية بمستوطنة يهودية. أن المستوطنات بشعة عادة لكنها على الاقل تخطط وتزود بالخدمات الأساسية، طرق ومياه وكهرباء وما إلى ذلك، قبل انتقال المستوطنين اليها، فى حين أن القرى العربية غير مخططة وتفتقر إلى الكثير من الخدمات الهامة ويتعين عليها أن تنتظر سنوات حتى تصلها الكهرباء ولا يزال الكثير منها بدون كهرباء، وليس هناك فى أى قرية عربية

شبكة صرف صحي أو شبكة طرق مرصوفة. وأنه لا وجود للهواتف والمراكز الصحية ولا توجد مكتبة عامة واحدة فى أى مدينة أو قرية عربية فى إسرائيل .

أما المسألة التى طفت دائما على ماعداها من مسائل أخرى بالنسبة إلى العرب فهى مصادرة أراضيهم .

وكانت المصادرات الكبرى قد وقعت عقب حرب ١٩٤٨ مباشرة عندما تمت مصادرة حوالى مليون فدان من أراضي العرب. ومنذ ذلك الحين، ووفقا للحصصات الإسرائيلية، تم الاستيلاء على ٤٤٠,٠٠٠ فدان أخرى لاشتمل المناطق التى أخذت من البدو فى النقب فكيف تم ذلك؟ وماهى الدرائع التى استخدمها الإسرائيليون لانتزاع كل هذه الاراضى؟ كانت الاساليب الاولى مباشرة فبموجب قوانين الدفاع (الطوارئ) لعام ١٩٤٥، ثم تنفيذ عمليات الطرد والمصادرة «لاعتبارات أمنية» فكل ما كان على الجنود الإسرائيليون أن يفعلوه هو دخول قرية عربية، كما فعلوا فى عصقلان فى عام ١٩٥٠، وتطويق السكان وأخذهم إلى الحدود دون أن توجه أى اسئلة، فكان «الأمن» هو المبرر. وبمجرد أن تتم عمليات الطرد تدمر القرى وتسلم أراضيها لكيبوتز أو موشاف قريب. (الكيبوتز هو مزرعة جماعية يهودية، والموشاف هو مزرعة تعاونية لصغار الملاك) .

استخدم هذا الاسلوب فى قرى عديدة فى شمال الجليل. وقد وقع حدثان من أبشع الحوادث فى قرية اقريت الكاثوليكية اليونانية وقرية كفر بيريم المارونية. ففي خريف ١٩٤٨، بعد انتهاء القتال فى الجليل، احتل الجيش الإسرائيلى كفر بيريم، ولم تمض أيام حتى أبلغ السكان بضرورة ترك ديارهم حيث ينتظر أن تجرى عمليات عسكرية فى منطقتهم وكانوا مترددين واكتفوا بالانتقال إلى بعض الكهوف المجاورة بعد وعد من مسئول فى وزارة الشرطة والاقليات بأنه سوف يسمح لهم قريبا العودة إلى ديارهم وكرر هذا الوعد بعد أشهر قليلة مستشار رئيس الوزراء للشئون العربية. لكن شيئا لم يحدث

وانتظر القرويون ثلاث سنوات أخرى بعدها رفعوا الأمر أمام المحكمة العليا التي حكمت لصالحهم. لكن الجيش رفض تنفيذ قرار المحكمة وفي سبتمبر من عام ١٩٥٣، تم زرع الألغام في القرية وأمر السلاح الجوي الإسرائيلي بأسقاط قنابل حارقة فهدم كل مبنى باستثناء الكنيسة. وسلمت معظم الأراضي لكيبوتز بيريم حديث التأسيس .

ولقيت قرية اقريت نفس المصير فقد اعترفت المحكمة العليا بحق القرويين في العودة إلى أراضيهم ونفت أن يكون للجيش أى حق في منعهم وفي حكمها أشارت المحكمة إلى أن الحاكم العسكري لم يصدر حتى الأمر بالطرد، فما كان من الحاكم العسكري إلا أن صحح هذا الخلل وأعلنت اقريت «منطقة أمن» محظورة على المدنيين وشكا القرويون مرة أخرى إلى المحكمة العليا. لكن العسكريين تحركوا قبل أن تجدد الوقت لنظر القضية. ففي أعياد الميلاد سنة ١٩٥١، نسف خبراء المفرقات التابعون للجيش كل منزل في القرية. بل اخذوا مختار اقريت إلى تل يطل على القرية ليشاهد التدمير بعيني رأسه .

واصل سكان القريتين الحياة في المنطقة (وان كانوا قد اعتبروا خطرين على الأمن) بل أصبح بعضهم عمالا في الكيبوتز والموشاف اللذين حلا محل القريتين. لكنهم رفضوا التخلي عن مطالبتهم بالأرض ولم يقبل التعويض غير نفر قليل. وفي عام ١٩٧٢، بدأوا الضغط من جديد وكان دايان قد ألغى التوه مناطق الامن داخل حدود عام ١٩٤٩، حيث أنها لم تعد ضرورية (إذ أن إسرائيل كانت قد وسعت بشدة حدودها في سنة ١٩٦٧) وتصور القرويون أنه لم تعد هنالك عقبة قانونية أمام عودتهم. وفي اغسطس من ذلك العام احتلوا أنقاض ديارهم قبل أن تجبرهم الشرطة على الرحيل. وأثارت المسألة مناقشة سياسية واسعة انحازت فيها معظم احزاب المعارضة إلى صف القرويين. ولما رفضت الحكومة تغيير سياستها حول المسألة، اتخذ مناحيم بييجين، قائد ائتلاف جاحال اليميني، موقفا انتقاديا بشكل خاص. فقد أعلن «أن ظلما قد لحق بسكان كفر بيريم. وهذا قرار

خاطي». وفي الحملة الانتخابية عام ١٩٧٧، سار ييجين إلى ما هو أبعد من ذلك لقد وعد القرويين بشكل محدد بأنهم سوف يعودون إلى ديارهم إذا ما تم انتخابه، وعندما أصبح رئيسا للوزراء، صار ذلك مصدر حرج بالغ له وقد حاول تأجيل اتخاذ قرار إلى اطول وقت ممكن. وترك لوزير زراعته أن يكشف في يناير ١٩٧٩، أن اللجنة الوزارية الخاصة التي شكلت لدراسة مسألة اقريت وكفر بيرتم قد اتخذت قرارا يقضى بعدم عودة القرويين.

لكن معظم المصادرات تمت في اطار القانون المدني. ففي السنوات الاولى أصدرت الحكومة عددا كبيرا من القوانين كانت كلها تهدف إلى جعل المصادرات تبدو قانونية مثل قانون أبلولة ممتلكات الغائبين والمواد الاستثنائية الخاصة باستغلال الاراضى غير المنزرة وقانون مصادرة الاراضى المنزرة وقانون الاستيلاء على الاراضى وما إلى ذلك. وحتى كل هذه القوانين لم تف بكل احتياجات الحكومة، فلبأت في بعض الحالات إلى المصادرة المجردة، فمن أجل الحصول على أراضى لبناء الكرميل فى عام ١٩٦٢، اكتفى وزير المالية باصدار مرسوم يأمر بمصادرة ١,٣٥٠ فداناً من الاراضى الخاصة بثلاث قرى عربية، وهى خطوة دمرت تماما اقتصاد احدى القرى، هى دير الاسد، التى فقدت من أجل ذلك أفضل أراضيه المنزرة.

أن هذه المجموعات من القوانين تبدو فى ظاهرها غير ضارة، لكن المشكلات تبدأ مع تعريفها. أن المواد الاستثنائية الخاصة باستغلال الاراضى غير المنزرة لا بأس بها ولكن ما الذى تعنيه على وجه التحديد؟ العنوان يبدو معقولا ولكن كيف جرى «غير المنزرة»؟ لقد كان الامر سهلا تماما فى معظم الحالات. فقد كان يوسع الحاكم العسكري أن يحدد قطعة من الارض بوصفها منطقة دفاع، يحظر على المدنيين دخولها. وهكذا يعجز ملاك الأرض عن زراعتها ومن ثم تصبح مهجورة. وعندئذ تتحرك وزارة الزراعة، وتعلن

أنها غير منزوعة وتأمّر بمصادرتها. أما قانون أيلولة ممتلكات الغائبين فقد كان أكثر إثارة للاستياء لأنه أعطى الدولة صلاحيات لمصادرة كل الاراضى العربية ما لم يقدم الملاك اولا مستندات تثبت ملكيتهم للارض. مع اثبات انهم لم يغادروا مكان اقامتهم فى الفترة ما بين ٢٩ سبتمبر ١٩٤٧ وأول سبتمبر ١٩٤٨، للذهاب إلى أى مكان خارج السيطرة اليهودية. وحيث أن معظم الاراضى لم تكن مسجلة قط بل كانت الاسر تفلحها عن طريق حق الارث، فمن الواضح أنه كان مستحيلا على الكثيرين اثبات أنهم الملاك. وعلاوة على ذلك، وكما هو الحال عادة فى وقت الحرب، وخصوصا فى هذه الحرب، فإن الكثيرين غادروا أماكن اقامتهم، وكان طبيعيا بحكم أنهم عرب أن يذهبوا إلى مناطق يسيطر عليها عرب آخرون. ووفقا للقانون الإسرائيلى، فانهم بذلك أصبحوا غائبين حتى وأن كانوا لم يغادروا قط المنطقة التى أصبحت إسرائيل فيها بعد. لقد كان لمحمود صفدى، رجل أعمال من طبرية أملاك، ولما بدأ بيجال ألون عملياته «التطهيرية» السيئة فى شرقى الجليل ترك داره وذهب للإقامة مع ذوية فى الناصرة، وكانت آنذاك تحت السيطرة العربية، وهكذا اعتبر غائبا، مع أنه لم يغادر قط إسرائيل، وفقد كل ممتلكاته .

لقد مست هذه القوانين كل قطاعات الطائفة العربية. وبموجب قانون أيلولة ممتلكات الغائبين، فقدت الاوقاف الاسلامية، أو صندوق الوصاية الاسلامية الدينى كل ممتلكاتها فى اسرائيل، وفى الوقت نفسه ألغ المجلس الإسلامى الأعلى وقولى دوره مسئول يهودى. وليس من الواضح تماما لماذا حدث ذلك أو كيف يمكن اعتبار مؤسسة خيرية دينية «غائبة»، وعلى أية حال صودرت أملاك الاوقاف وبيع بعضها أو هدم كذلك صودرت كل الجبانات الإسلامية فى يافا -بإستثناء نصف فدان- لبناء هيلتون تل أبيب وارساء الأساس لحدائق الاستقلال. وفى نصف الفدان الباقى دفنت كل العظام من بقية الجبانه، إلا أنه حتى نصف الفدان هذا جرى استخدامه فيما بعد لشبكة طرق جديدة .

وكان يبدو النقب من بين ضحايا هذه القوانين. ففي عام ١٩٤٨م رحل عن النقب حوالي ٥٩,٠٠٠ بدوى من بين رجال القبائل البالغ عددهم ٧٠,٠٠٠ نسمة. أن بعضهم، كأفراد قبيلة العازمة البالغ عددهم ٦,٠٠٠ نسمة، قد طردوا، بينما رحل الآخرون من تلقاء أنفسهم وذهبوا إلى سيناء أو شرق الأردن. ودمرت الحرب النظام القبلى لأولئك الذين بقوا، وفقدت كل القبائل الفرعية، باستثناء قبيلتين، أعدادا ضخمة من أفرادها ومن ظلوا على قيد الحياة فقدوا كل اراضيهم الزراعية تقريبا ومعظم مراعيهم، ثم نقلوا إلى منطقة فى شمال- شرقى يثر سبع ومنعوا من التحرك خارجها. وقد أعلن السفير الإسرائيلى لدى بريطانيا فى عام ١٩٥٨ أنه «بالنظر إلى الأهمية الاستراتيجية الكبرى للنقب والحاجة إلى ترتيبات أمن خاصة،... إلخ فقد وجد من الضروري قصر تحركات البدو فى النقب على منطقة محددة» وهكذا تمثلت سياسة الحكومة فى معاملة البدو كما عامل الأمريكيون الهنود الحمر: حشرهم فى أماكن تتضاءل مساحتها شيئا فشيئا «لاعتبارات أمنية»، وتشجيعهم على الاستقرار، وتسمى هذه العملية «إعادة تسكين»، وهو واحد من التعبيرات المخففة الكثيرة التى يستخدمها المسؤولون الإسرائيليون .

ولقد وصل الآن عدد أفراد قبائل النقب إلى ٤٠,٠٠٠ نسمة وتغيرت السياسة الإسرائيلية تجاههم. فخطط الحكومة الصناعية والانسحاب التدريجى للقوات المسلحة من سيناء وأعطت النقب أهمية جديدة، وهذا يعنى فى واقع الأمر أنه لا بد لحياة البدو الرحل من أن تتوقف وسوف يضطرون إلى الاستقرار فى المراكز الحضرية الجديدة التى تبنيتها الحكومة لهم. لكن الطريق من الصحراء إلى المدينة قصير جدا بالنسبة للبدو وهم يصرون على أنه اذا كان لا بد من استقرارهم فسوف يكونون مزارعين وليس عمالا صناعيين. ويرد المسؤولون على ذلك بأنه ليس هناك مايكفى من الماء لكنهم لا يفسرون لماذا توجد وفرة من المياه للميستوطنات اليهودية بينما لا توجد أية مياه للبدو، وبما أن

رجال القبائل لا يتعاونون مع الحكومة، فإن الاخيرة شكلت وحدة اسمها الدورية الخضراء بهدف مضايقة البدو ومنعهم من رعى قطعانهم فى الأراضى التى تملكها الدولة. لكن هدف الدورية الخضراء فى الواقع، وفقا لما يذكره ومؤيدو الحقوق المدنية الإسرائيليون، هو تقليص القطعان القبلية وطرد الرعاة من أراضيتهم. وكما ذكر صحفى فى جيمروزاليم بوست فى فبراير ١٩٧٩، فإن: «أنباء الاستسعاد وإثارة الرعب من جانب رجال الدورية الذين ينفذون أوامر الطرد تتواتر بتكرار مخيف. فمن المعروف أن الوحدات تنقض على المخيمات، وتصادر أو تشتت شمل القطعان وتدمر الممتلكات وتهدد النساء والأطفال بالمسدسات المشحونة .

ولعل الناس الذين عانوا الامرين من مختلف قوانين المصادرة هم قرويو المثلث من المسلمين، وتلك هى المنطقة التى تتاخم السهل وسفوح السامرة على بعد اميال قليلة من الساحل تمتد من هيرتزيليا إلى زيخرون يعقوب. وكانت هذه القرى قد اقامها سكان من جبال نابلس فى القرن التاسع عشر. وفى مشروع تقسيم عام ١٩٤٧، جرى تخصيصها، مع كل السامرة للدولة العربية المقترحة. وخلال الحرب صمدت فى وجه الصهاينة ولم يتم الاستيلاء عليها قط، وأن كان الكثير من اراضيها الاقرب إلى البحر قد احتلها الجيش الإسرائيلى. وعند الهدنة اكتشف السكان لدهشتهم أن معظم القرى قد ضمتها إسرائيل بدلا من الأردن الذى كان يسيطر عليها. وكان ذلك هو الثمن الذى اخذته إسرائيل مقابل السلام، ولما كانت الولايات المتحدة والامم المتحدة غير مستعدين لممارسة الضغط على الدولة الجديدة، فقد اضطر الأردنيون إلى الموافقة .

لقد رسمت الحدود التى تقررت فى رودس بتعسف، فلم تراع حدود القرى وأبعد الكثيرون عن أراضيتهم، وقسمت قريتا برطعة وبيت صفافة إلى جزئين صغيرين مما ترك افراد الأسرة الواحدة على جانبي الاسلاك الشائكة لا يستطيعات الانصال، أما مصير قرية

طبية- القرية العربية «النموذجية» التى يؤخذ إليها ضيوف الحكومة الإسرائيلية ليشاهدوا كيف «يزدهر» الفلسطينيون فى ظل الحكم الإسرائيلى؟ فهو مثال أوضح، فأثناء القتال استولى الإسرائيليون على أراضى القرية لكنهم لم يستولوا على القرية. ومع أنباء الهدنة غضب السكان لتسليمهم ببساطة إلى إسرائيل لكنهم ارتاحوا بالطبع إلى أنهم سوف يعودون إلى أرضهم أو هكذا تصوروا. لكن قانون ايلولة ممتلكات الغائبين، الذى اجيز فى عام ١٩٥٠ بأثر رجعى، قد صيغ بطريقة تعالج حالات كهذه. ومع أن السكان لم ينتقلوا من قريتهم، فقد اعتبروا «غائبين» واعتبرت أراضيهم ممتلكات مهجورة» ووفقا لما يذكره القرويون فانهم خسروا ٨٠٠٠ فدان من الـ ١١,٠٠٠ فدان التى يملكونها وكان هذا مصير كل قرى المثلث، فقريّة طيرة التى تبعد حوالى اربعة اميال إلى الجنوب الشرقى، لم تحفظ الا بـ ١,٥٠٠ فدان من أصل ٨,٥٠٠ فدان.

لم يكن من الصعب تحديد السبب وراء سياسة المصادرة الإسرائيلية. إذ لما كانت ستة بالمائة فقط من فلسطين ملكا لليهود عند اعلان الاستقلال. فمن الواضح انه كان على الحكومة أن تنهب معظم الباقي لو انها ارادت خلق دولة يهودية من النوع الذى قصده الصهانية، وهذا هو ما فعلته. بل أنها أذاعت بيانا صحفيا فى عام ١٩٥٣، لكى تبين أن كل المستوطنات، والتى أقيمت خلال السنوات الخمس السابقة، قد بنيت على ممتلكات «غائبين» ووصف الجنرال دايان العملية لجمهور من المستمعين فى عام ١٩٦٩، قائلا:

«لقد بنيت القرى اليهودية مكان القرى العربية. انتم لا تعرفون مجرد اسماء تلك القرى العربية، وأنا لا ألومكم لأن مثل هذه الكتب الجغرافية لم تعد موجودة، وليست الكتب وحدها غير الموجودة، بل أن القرى العربية ليست موجودة أيضا. لقد ظهرت ناحالال (قرية ديان) مكان محلول، وظهرت جيغات (كيبوتز) مكان جيبتة، وظهرت

سريد (كيبوتز آخر) مكان حنيفة، وظهرت كفار ييهوشوا مكان تل شمان. فليس هناك مكان بنى فى هذا البلد لم يكن فيه من قبل سكان عرب.

الآن وبعد أكثر من ثلاثين سنة من إقامة مستوطنات فى الضفة الغربية وغزة، وكذلك فى الأراضى السورية والمصرية يعترف إسرائيليون عديدون بأنهم لم يعودوا بحاجة إلى مزيد من الأراضى. لكن المصادرة لاتزال مستمرة، بدافع سياسى هذه المرة، أن معظم العرب فى إسرائيل، الذين يبلغ عددهم الآن ٥٥٠,٠٠٠ نسمة يعيشون فى الجليل. وفى عام ١٩٤٨، عندما طردت اعداد ضخمة من العرب، اصبح اليهود اغلبيه فى المنطقة، إلا أنه بحلول عام ١٩٧٨ تجاوز عدد السكان العرب عدد اليهود نتيجة للارتفاع الهائل فى معدل المواليد وأصبحت المسألة مسألة حساسة للغاية فى البلاد لأن الامم المتحدة لم تكن تقصد فى بادئ الامر أن يكون الجليل الغربى جزء من إسرائيل. فقد كان الهدف أن يكون جزءا من فلسطين العربية، وإذا ما قدر لمشروع الدولة الفلسطينية أن يصبح واقعا فى يوم من الايام، فإن عرب الجليل قد يطالبون بالاندماج فيها؛ خاصة إذا كانوا يشكلون اغلبيه من سكان المنطقة .

ولهذا شرع الصهانية فى القيام ببرنامج «تهويد الجليل» لضمان ألا يهيمن العرب ابدا على الجليل، ولهذا الهدف، بنيت الكرميل والناصره العليا وعندما اصبحت المسألة حساسة بشكل خاص، جرى مؤخرا بدء حملة مسعورة لانشاء مستوطنات جديدة وعلى حساب الأرض العربية كالعاده وفى ٣١ يناير عام ١٩٧٩ صرح وزير الصناعة والتجارة امام الكنيست أن الحكومة قد اعطت الأولوية الاولى «فى كل الوزارات» للتنمية (اليهودية) للجليل، وذكر أن عشر مستوطنات قد اقيمت فى المنطقة منذ تولى الحكومة (فى مايو ١٩٧٧)، وبعد ذلك بأسبوعين أعلن الجنرال شارون، وزير الزراعة، أنه سوف يتم البدء بانشاء تسع وعشرين مستوطنة خلال الأشهر الثلاثة القادمة. وأضاف أنه «منذ

الثلاثينات لم توجد رغبة ملحة فى انشاء المستوطنات كما هو الآن»

ويدرك أى مسافر عبر الجليل معنى التهويد : فالقرى العربية الباقية تقع عادة على أرض مرتفعة، على منحدرات التلال الصخرية تحيط بها صفوف قليلة من بساتين الزيتون، واسفلها، وتنتشر الكمبيوترات والمشافات املاك الصندوق القومى اليهودى، وتغطى الارض الخصبة فى الوديان. وهناك شىء قد يحير المسافر هو انتشار نبات الصبار، غالبا فى اماكن غير متوقعة فى وسط الحقول أو قرب المزارع اليهودية. وتفسير ذلك غريب وهو: أن الصبار نبات عتيذ، ومهما ستحصل فهو يعاود الظهور) وهذه سمة تقليدية من سمات للقرية لعربية، ولا تزال نباتات الصبار تعاود الظهور فى الاماكن التى كانت توجد بها تلك القرى. لقد كان يوجد قبل عام ١٩٤٨، ٤٧٥ قرية عربية دمرت منها السلطات الإسرائيلية ٣٨٥ قرية .

كذلك قوضت سياسة المصادرة الإسرائيلية الاقتصاد الزراعى العربى وببساطة لم تكن هناك أرض كافية تمكن هذا الاقتصاد من البقاء. ففى عام ١٩٤٨، كان متوسط الأراضي الصالحة للزراعة لكل قرية حوالى ٢,٢٨٠ فداناً، وبحلول عام ١٩٧٤ هبط إلى ٥٠٠ فدان، وقبل عام ١٩٦٢ كانت قرية دير الاسد مكتفية ذاتيا من حيث المواد الغذائية فقد كانت تنتج اللحوم والفاكهة والقمح والخضروات كما كانت تبيع الفائض فى عكا او الناصرة. وفى عام ١٩٦٢ صودرت أراضيها فى وادى مجد الكروم لحساب مشروع الكرمل وجردت القرية من أكثر افدنتها خصوبة. ولم تبق غير الارض الجبلية إلى الشمال، والمؤلفة أساسا من بساتين الزيتون. وهكذا بضرية واحدة تم تدمير اقتصاد دير الأسد. واليوم لا يستطيع العمل فى الأرض غير عشرة بالمائة من القوى العاملة فى القرية، ويذهب أكثر من ثمانين بالمائة يوميا إلى مصانع حيفا أو يعملون كعمال فى المزارع اليهودية، وينطبق الشئ نفسه على كل القرى الأخرى. وأشد المناظر

مدعاة للحزن فى كل إسرائيل فهى الطواير الطويلة من عربات نقل الركاب التى تقف خارج كل مدينة وقرية عربية بين الخامسة والسادسة صباحا لتنتقل الآلاف الذين حرموا من العمل فى مواقعهم .

وتباينت ردود فعل العرب الإسرائيليين تجاه هذا الانقضاء المنظم على حياتهم بل وعلى شخصيتهم، ولا بد أن نتذكر أنهم قد عاشوا ومازالوا يعيشون فى ظروف مختلفة تماما عن العرب الآخرين فقد ظلوا دائما يحكمهم أجانب- أتراك، والبريطانيون، والإسرائيليون- وقليلون منهم رأوا مدينة عربية تحت حكم عربى ومعظم السنوات الثلاثين الاخيرة كانوا فى حالة من الضعف وفى موقف الدفاع تواقين إلى عدم جذب الانتباه، فهم يدركون أن وضعهم شاذ، وأن أقلية عربية داخل دولة تكاد تكون فى حالة حرب دائمة مع العالم العربى لا بد وأن ينظر إليها نظرة شك من جانب حكومة تلك الدولة كما يعرفون أن كثيرين من الإسرائيليين يعتبرونهم «طابورا خامسا» وأن بعضهم، مثل ديفيد شيكما، نائب عمدة تل أبيب، يدعون من آن لآخر إلى طردهم. أن هذه الخلفية هى التى خلقت مثل هذه المواقف المتباينة تجاه الدولة الصهيونية. وهى مواقف تتراوح بين الرفض التام أو الاستسلام أو حتى التعاون. ووفقا لاستطلاع للرأى العام نشر فى صيف ١٩٧٩، لا يعترف نصف عرب إسرائيل بحق إسرائيل فى الوجود، ويعتقد حوالى ثلثيهما أن حركة الصهيونية عنصرية. وبعضهم يسلم بأن الدولة سوف لا تختفى وأنه من الخطر المضى فى محاولة رفضها، لكن أحدا منهم لا يمكنه نسيان أن خلقها كان ظلما ألحق بشعبهم .

وعادة ما تكون لمواقف القبول أو المعارضة هذه أصول شخصية، ولا يبدو وجود أى انقسامات بين الطبقات الاجتماعية أو الأقاليم أو بين سكان الريف والحضر إلا أنه يمكن القول بوجه عام أن التجار ورجال الاعمال يميلون إلى أن يكونوا أقل عداوة

لنظام من المثقفين، كما أن المسلمين أصلب في معارضتهم من الدروز أو المسيحيين. لكن تباين المواقف واستحالة التعميم حولها يمكن اثباتهما بوجود التباين داخل الأسر. وأقوى الأمثلة على ذلك أسرة الفاهوم من الناصرة. فمن بين خمسة أشقاء عين الإسرائيليين واحدا عمدة الناصرة، وأصبح آخر عضوا في الكنيسة ينتمى إلى أكبر حزب سياسى صهيونى، وعلى الجانب الآخر أصبح احد الأشقاء قائدا للاحتلاف القومى، الجبهة العربية، خلال الخمسينات بينما كان رابعهم عضوا مؤسس لمنظمة التحرير الفلسطينية وأصبح فيما بعد رئيسا للمجلس الوطنى الفلسطينى .

ويمكن لتقسيم العرب الذين يقبلون إسرائيل ويتعاونون معها إلى فئتين: أولئك الذين اشتراهم النظام فعلا وأولئك الذين يشعرون أنه ليس هنالك بديل معقول. والآخرين موقفهم انهزامى، ضرب من استجابة «فيشى» لشىء. هم على ثقة من أنه سوف يهزمهم دائما، وأنهم كرجال فيشى، يشمئزون من الذين يصرون على مواصلة النضال ويقولون: «لقد وجدت إسرائيل لتبقى ولذا من الأفضل لنا أن نستغلها إلى أقصى حد ممكن. أننا مواطنون إسرائيليون وإذا كنا نريد تحسين الأمور، فإن علينا أن نكون مخلصين للدولة. وفي وضعنا لا بد من أن نكون واقعيين .

أما مواصلة الاصرار على حقوقنا التى فقدناها على امتداد ثلاثين سنة خلت فإن ذلك ليس من شأنه غير تقديم ذريعة إلى إسرائيل لكى تواصل اضطهادنا ولقد كانت تلك النظرة تحظى منذ عشرين سنة بتأييد أكبر بكثير من اليوم. فلو أن هؤلاء المتشائمين تمكنوا من انتزاع بعض التنازلات الفعلية من الحكومة لربما تسنى لهم أن يدؤوا على شىء من المعقولة. لكن الإسرائيليين رفضوا مساعدتهم واستمروا فى السياسات التى هى أساس السخط العربى وتتمثل فى التفرقة بوجه عام ومصدرة الأراضي. وكانت النتيجة الطبيعية لكل هذا الزيادة الواسعة النطاق للراديكاليين

والقوميين بين صفوف السكان العرب وخاصة الحزب الشيوعي .

أما العرب الذين اشتراهم النظام فهم خليط، فى القاعدة يوجد المخبرون أو المتعاونون المأجورون وهم عادة من أرقى مستويات المجتمع وعملهم هو نفس عمل جواسيس الشرطة فى كل مكان. وكان واجبهم خلال الحكم العسكرى، هو تقرير يومى من كافة أنشطة القرية وخاصة الأنشطة الثقافية أو السياسية .

وعند مستوى آخر يوجد قادة ومخاتير القرى ولم يكن هؤلاء يتقاضون رواتب كالمخبرين ولم يكونوا متواطئين نشطين. ومع ذلك، كانوا عادة بين السكان العرب وفى مقابل بعض الامتيازات التى منحتهم اياها الحكومة، وكان يمكن الاعتماد عليهم فى اخماد أية بوادر للروح القومية أو المعارضة. لكن هذه الطريقة أخذت فى التلاشى بصورة مطردة على مر السنين. ففى السابق كان الإسرائيليون يركزون على العائلة القيادية لقرية بعينها فيسير فى ركابها غالبية السكان. أما الآن وقد أخذ التنظيم الاجتماعى للقرية بتفسخ ولم تعد السلطة مركزة فى ايدى عائلة أو عائلتين، فإن العملاء يتلاشون .

وتتألف مجموعة ثالثة مؤيدة للنظام من أعيان وساسة المدن، وقد ارتبط معظمهم بالحزب السياسى الأكبر، حزب العمل الإسرائيلى وأن لم يسمح لهم، لأنهم عرب، بأن يصبحوا أعضاء فيه قبل سنة ١٩٧٣. وكان الحزب قد تشكل فى سنة ١٩٦٨ باندماج ثلاث مجموعات عمالية، الماباى ورافى. وأحدوت هاعفودا. وبصورة أو بأخرى شكل الحزب حكومة إسرائيل فى الفترة من ١٩٤٩ إلى ١٩٧٧ .

وبعض المنضمين من العرب لحزب العمل الإسرائيلى يرشحون فى انتخابات الكنيست وعادة ما ينتخب ثلاثة أو أربعة منهم. أما بالنسبة للحزب، فليست لهم غير وظيفتين: حث العرب على التصويت للحزب فى الانتخابات والتمسك الشديد بسياسة

الحزب بعد ذلك. وخلال الحكم العسكري سهل من المهمة الاولى بالضغط الذي مارسه الضباط المؤيدون للمباي على الناصحين العرب. وفي احد الانتخابات، صوت كل العرب في اللد لصالح المباي باستثناء زوجين صوتا للمباي (حزب العمال المتحد). وفيما بعد القى القبض على الزوج، وقال له الحاكم العسكري، «سأعلمك معنى التصويت للمباي»، ثم ضرب العرب في داخل إسرائيل ينظرون دائما إلى أعضاء الكنيسيت، فنادرا ما ألقوا خطبا حول المسائل الحساسة وفي مناسبة واحدة، عندما انقسم الكنيسيت بالتساوي حول موضوع ما اذا كان يجب الابقاء على نظم الدفاع (الطوارئ) السيئة أم لا، صوت الاعضاء العرب ضد غاليتها. وهم اليوم موضع احتقار اكثر من ذي قبل ولايصوت لصالحهم في الانتخابات المحلية أو القومية غير عدد من العرب أخذ في التقلص. لقد بدأوا حياتهم السياسية زاعمين أن قبول إسرائيل والتعاون مع السلطات يشكلان الاساس الممكن الوحيد للتعايش بين اليهود والعرب، وتمكنوا لسنوات عديدة من اقناع بعض الناس بأنهم الممثلون الحقيقيون للعرب الذين يناضلون من أجل حقوقهم من داخل الحكومة، لكن الاعتداءات المتصلة على الحقوق العربية من جانب الحكومات المتعاقبة التي صوتوا لصالحها في الكنيسيت قد زعزعت موقفهم ودفعت العديد من مؤيديهم إلى المعسكر الراديكالي .

وأحد هؤلاء الضحايا هو سيف الدين الزعبي، وهو من كبار الملاك من الناصرة وعمدة سابق للمدينة. ففي عام ١٩٤٩ انتخب لكنيسيت كديمقراطي من الناصرة من حزب يتنمى للمباي وظل هناك طيلة معظم العقود الثلاثة التالية. والواقع أنه كان واحدا من مؤيدي المباي القلائل الذين تحدثوا فعلا عن القضايا العربية وقد هاجم في الخمسينات علانية قانون الجنسية وقانون الاستيلاء وتحدث مؤيدا عودة اللاجئين. إلا أنه لم يكن بوسع أى مؤيد نشط لحزب جولدا مائير أن يحتفظ بعدد كبير من المؤيدين العرب إلى مالا نهاية وفي سنة ١٩٧٥ هزم هزيمة ساحقة في الانتخابات لمنصب











































































































































































































































































































